اختيار الكلمة
في التعبير القرآني

دكتور/ رشاد محمد سالم

أستاذ فقه اللغة المشارك

بجامعتى الأزهر والشارقة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿كتاب فصلت آياته قرانا عربيا لقوم يعلمون﴾

(سورة فلت ٣)

مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفصح العرب أجمعين، سيدنا محمد وآله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن القرآن الكريم لا جدال فى أنه كتاب العربية الأكبر، ومعجزتها البيانية الخالدة، ومثلها العالى الذى يجب أن يتصل به كل عربى أراد أن يكسب ذوقها، ويدرك حسها ومزاجها، ويستشف أسرارها فى البيان، وخصائصها فى التعبير والأداء.

إن تدبر آيات القرآن الكريم والاستمتاع بلفتاته ولطائفه نعمة من الله المنعم الكريم، نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها، نعمة ترفع العمر وتباركه وتزكيه.

وإن القرآن الكريم لهو أنفس ما توجه له النظرات، وتنفق فيه الأوقات، وتعد حوله البحوث والدراسات، فتلاوته عبادة، وحفظه عبادة، والنظر فيه عبادة، وتدبره عبادة، وتفسيره عبادة، والكلام عنه عبادة، وتقديم خصائصه ودلالاته ولطائفه عبادة، ودعوة الناس إليه عبادة، والحياة فى ظلاله عبادة، وتطبيق توجيهاته عبادة، والحركة به فى الواقع عبادة، ومواجهة الجاهلية وجهادها به عبادة، وكل ما يتصل به عبادة لله سبحانه وتعالى.

إن فى القرآن الكريم كنوزاً ضخمة من الإشارات واللفتات واللطائف والإيحاءات، والمعانى والحقائق والدلالات[1]، فمن يعرف القرآن الكريم ويتذوقه

(١) انظر: لطائف قرآنية، د. صلاح الخالدي، ص٥-٦. ط٢ دار القلم، دمشق ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

لا يعدل عنه بديلاً، ومن يعرف القرآن الكريم يعز عليه أن يضيع بعض وقته فى سماع هذا الغثاء الذى يذلع علينا باسم الفن.

من هنا يقبل العلماء على القرآن الكريم، ويستمتعون بما يفتح به الله عليهم من تلك اللطائف والمعانى والحقائق، فلم يحظ كتاب فى الأرض كلها بمثل ما حظى به القرآن الكريم من اهتمام المفسرين والمؤلفين والدارسين والعلماء، فألفت حوله الآلاف المؤلفة من الكتب والدراسات.

وما نعرضه من تحليل لغوى أو فهم دلالى، إنما هو من أثر ما قدمه نا العلماء من علوم، وما صاغوه من قواعد لغوية ثابتة، وإن ما نقوله اليوم بالقياس إلى ما قدمه علماؤنا السابقون من هذه الأسفار الخالدة يشبه من يوقد شمعة جديدة فى قصر ساطع بالأضواء واللآلى من قبل[1].

ولما كان هذا القرآن العظيم قد نزل بلغة العرب وجرى مجاريهم فى فهم الخطاب- كان لابد لمن يتصدى لتفسير القرآن الكرى تفسيراً دقيقاً من الاعتماد على العربية وفهم أساليبها والنفاذ إلى خصائص التعبير فيها، وتحديد مدلولات ألفاظها، وتحرى الدقة فى تحديد مدلولات الألفاظ هو الخطوة الأولى فى فهم المعانى وتفسير النصوص.

ومن هنا ندرك دقة تعبير العلماء المتقدمين عن العلوم العربية بتسميتهم لها (علوم الآلة) فهى حقا الأداة والآلة لدراسة النصوص وفهمها. واللغة العربية قد عرفت بكثرة المفردات وتنوع الدلالات وسعة التعبير، مع فصاحة اللسان ووضوح البيان.

وإذا كانت العربية قد امتازت بوفرة كلماتها فى المعنى الواحد، فليس معنى ذلك أن هذه الكلمات كلها تدل على هذا المعنى الواحد من دون فروق يلاحظها المتكلم أو السامع، بل بين هذه الألفاظ فروق دقيقة فى الدلالة وتفاوت يلاحظ فى المعنى، يدرك ذلك من علم من اللغة علماً أورثه ذوقاً فيها، وملكة فى معرفة أصولها وقواعدها، وسبر هذه الكلمات واستخراج ما بينها من فروق وخصائص[2].

ولما بين الألفاظ من فروق دقيقة فى دلالتها يتأنق أسلوب القرآن الكريم فى اختيار ألفاظه، ويستخدم كلاً حيث يؤدى معناه فى دقة فائقة، تكاد بها تؤمن بأن هذا المكان كأنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، ولذلك لا تجد فى

---

(١) انظر: شواهد في الإعجاز القرآني، د. عودة أبو عودة، ص١٩. ط١، دار عمار، الأردن ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٢) انظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص١٢٧)، "ومع القرآن الكريم في إعجازه اللغوي"، د. رشاد سالم ص٨٣.

القرآن الكريم ترادفاً، بل فيه كل كلمة تحمل إليك معنى جديداً.

ولما بين الكلمات من فروق ولما يبعثه بعضها فى النفس من إيحاءات خاصة دعا القرآن الكريم ألا يستخدم لفظ مكان آخر فقال: **﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾**[1]. فهو لا يرى التهاون فى استعمال اللفظ، ولكنه يرى التدقيق فيه ليدل على الحقيقة من غير لبس ولا تمويه، ولما كانت كلمة «راعنا» لها معنى فى العبرية مذمومة، نهى المؤمنين عن مخاطبة الرسول عليه الصلاة والسلام بها، فقال: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا﴾**[2]. فالقرآن الكريم شديد الدقة فيما يختار من لفظ يؤدى به المعنى[3].

الدقة فى التعبير والحيطة فى استعمال الكلمة -إذن- مطلب قرآنى حرص عليه ونبه المؤمنين إليه، حتى لا تضل المعانى بين الأفهام، ويضيع المقصود من خلال الاحتمالات.

فاللفظ القرآنى لا يقوم مقامه سواه فى أداء معناه، والحرف لا يسد مسده غيره، والجملة لا تتحرك من مكانها دون أن يختل نظام الكلام أو يفسد السياق، بل إن الحركة والنبرة تأخذ كل منهما مكانها فى نظم باهر وإبداع ساحر.

ولما كان تحديد دلالات الألفاظ تحديداً دقيقاً يعتبر الخطوة الأولى والأهم فى فهم المعانى وتفسيرها، فإن ذلك يتوقف على معرفة الفروق الدقيقة بين الألفاظ التى يظن فيها الترادف، وهو ما توخيته فى بحثى هذا، مؤكداً الدقة المتناهية فى اختيار الكلمة القرآنية، مبرزاً دورها فى نظم قرآنى معجز، تكون كل كلمة فيه مقصودة للفظها ومعناها، لتؤدى دلالتها وإيحاءاتها التى اقتضتها حكمة الله عزوجل.

وقد تمثل ذلك فى النقاط الآتية:

- بلسان عربى مبين.
- اختيار الكلمة القرآنية وأثره.
- نماذج تطبيقية.
- خاتمة موجزة توحى بما انتهيت إليه.

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحا

---

(١) سورة الحجرات: ١٤. (٢) سورة البقرة: ١٠٤.

(٣) انظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص٥٧، ط٣، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ١٣٧٠-١٩٥٠م.

بلسان عربي مبين

القرآن الكريم معجزة النبى ﷺ، وطبيعة إعجازه من جنس ما مهر به بلغاء العرب وفصحاؤهم، ولما كان القرآن الكريم كتاب الأبد فقد جعل إعجازه البياني يتسع لما يستجد من نظرات العقل البشرى، وهذا الإعجاز لم يكن مقصوداً لذاته، وإنما كان لشد باصرة الإنسان وبصيرته، ليعى وجوده بالقول الفصل الذى حمل سمة البيان، قال تعالى: ﴿**هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين**﴾[1].

وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يتحمل العرب شرف الرسالة، فبلغها بلسان عربى مبين إلى نبيه العرب بالأمين ﴿**نزل به الروح الأمين. على قلبك لتكون من المنذرين. بلسان عربى مبين**﴾[2]، وحجة إنزاله بلسان عربى مبين من وجهين:

الأول: أنه لو كان إنزاله بلسان أعجمى لتجافى العرب عنه أصلاً، ولقالوا: ما نصنع به لأننا لا نفهمه، فيتعذر الإنذار به.

الثانى: أن تنزيله بالعربية التى هى لسان محمد ﷺ ولسان قومه- تنزيل له على قلب محمد ﷺ لأنه يفهمه، ويفهمه قومه، ولو كان أعجمياً لكان نازلاً على سمعه دون قلبه، لأنه يسمع أجراس حروف لا يفهم معانيها ولا يعيها، والمعنى: إنا أنزلنا هذا القرآن على رجل عربى بلسان عربى مبين، فسمعوا به وفهموه وعرفوا فصاحته، وأنه معجز لا يعارض بكلام مثله[3].

فبلاغة القرآن الكريم- كما يقول الخطابى[4]- لا تجتمع لأحد من البشر، ولا يجوز أن تأتى عليها قدرته، وإن كان أفصح الناس، وأعرفهم بطرق الكلام وأساليب البيان.

كان طبعياً أن يتنزل القرآن الكريم بلغة قريش على الرسول ﷺ تأليفاً للعرب، وتحقيقاً لإعجاز القرآن الكريم حين يسقط فى أيديهم أن يأتوا بمثه أو بسورة منه.

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٨. (٢) سورة الشعراء: ١٩٣- ١٩٥.

(٣) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري، ٣/ ١٢٨، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.

(٤) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي (ضمن ثلاث رسائل) ص٦٠، دار المعارف، مصر.

وإذا كان العرب تتفاوت لهجاتهم فى المعنى الواجد بوجه من وجوه التفاوت، فالقرآن الكريم الذى أوحى الله به لرسوله ﷺ يكمل له معنى الإعجاز إذا كان مستجمعاً بحروفه وأوجه قراءته للخالص منها، وذلك مما ييسر عليهم القراءة والحفظ والفهم، وهذه حكمة بالغة فى سياسة أولئك الجفاة وتألفهم وضم نشرهم.

فلو لم يكن القرآن الكريم بلغة قريش ما اجتمع العرب له البتة، ولو كانت بلاغته مما يحى ويميت- على حد قول مصطفى صادق الرافعى[1]- ثم كانوا لا يعدون فى اعتبارهم إياه أنه ضرب من تلك الضروب التى كانت لهم من خوارق العادات كالسحر والكهانة وما إليهما، وهو الذى افترته قريش، ليصرفوا به وجوه العرب ويميلوا رؤوسهم عن الإصغاء إلى النبى ﷺ، فقالوا: ساحر، وكاهن، وشاعر، ومجنون، وتقوّلوا من أمثال ذلك يبتغون به أن يحدثوا فى قلوب الناس لهذا الأمر خفة الشأن، وأن يهونوا عليهم منه بما هوّنته العادة، وهم كانوا أعلم بعادات القوم وما يبلغ بهم، حين قعدوا يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً.

ولو أن القرآن الكريم نزل بغير ما كان يألفه النبى ﷺ من اللغة القرشية وما اتصل بها لكان مغمزاً فيه، إذ لا تستقيم لهم المقابلة- حينئذ- بين القرآن الكريم وأساليبه، وبين ما يأثرونه من كلام النبى ﷺ فيهون ذلك على قريش، ثم على العرب، فيجدون لكل قبيلة مذهباً من القول فيه، فتنشق الكلمة، ثم يصير الأمر من العصبية والمشاحنة والبغضاء إلى حال لا يلتئم عليه أبداً.

ولو أن شاعراً من شعرائهم ظهر فيهم بدين خيالى وأقامهم عليه لكان من الرجاء والاحتمال أن يستجيبوا له دون صاحب القرآن الذى ينزل عليه بلغة غير لغة قبيلته.

لقد ائتلفت لغة القرآن الكريم على وجه يستطيع العرب أن يقرؤوه بلهجاتهم، وإن اختلفت وتنوعت، ثم بقى مع ذلك على فصاحته وخلوصه.

يقول الرافعى[2]: وتلك سياسة لغوسة استدرج بها العرب إلى الإجماع

---

(١) انظر: تاريخ آداب العرب للرافعي، ٢/ ٦٢، ط٤، دار الكتاب العربي، ١٩٧٤م، بيروت، وبحث د. عبد الحميد أب سكين (مع القراءات القرآنية).

(٢) السابق نفسه.

على منطق واحد، ليكونوا جماعة واحدة كما وقع ذلك من بعد.

فجرت لغة القرآن على أحرف مختلفات فى منطق الكلام كتحقيق الهمز وتخفيفه، والمد والقصر، والفتح والإمالة وما بينهما، والإظهار والإدغام، ونحو ذلك، فكان أهل كل لحن يقرؤونه بلحنهم[1].

إن طبيعة الإعجاز القرآنى طبيعة خاصة لا تعرف النتائج النهائية، فلو عرف البشر كل أسرار الإعجاز لفات التحدى بالقرآن الكريم، وهكذا يظل الأسلوب القرآنى المعجز منبعاً للجمال الباهر والفن الذى يفوت على أبد الناس وأكملهم، مادام متلواً آناء الليل وأطراف النهار، داعياً الناس دعوة مستمرة إلى الدرس والتنقيب والكشف.

قد اعتنى العلماء بمسألة الإعجاز، وجهدوا فى أن يكشفوا وجوهها، لأنها تثبت عقيدة الإسلام فى القلوب، وترد سهام الطاعنين فى أصل المعجزة، ومن هنا فضل الباقلانى البحث فى الإعجاز على غيره من العلوم، قال: «وقد كان يجوز أن يقع ممن عمل الكتب النافعة فى معانى القرآن، وتكلم فى فوائده من أهل الصنعة العربية وغيرهم من أهل صناعة الكلام، أن يبسطوا القول فى الإبانة عن وجه معجزته، والدلالة على مكانه، فهو أحق بكثير مما صنفوا فيه من القول فى الجزء والطفرة ودقيق الكلام فى الأعراض، وكثير من بديع الإعراب وغامض النحو، فالحاجة إلى هذا أمس والاشتغال به أوجب»[2].

والباقلانى يريد بأهل صناعة العربية من سبقه من العلماء كالفراء (٢٠٨هـ) وأبى عبيدة (٢١٠هـ) والأخفش (٢١٥هـ) والزجاج (٣١١هـ) وأبى جعفر النحاس (٣٣٨هـ) وغيرهم ممن ألف فى معانى القرآن وإعرابه.

ويريد بأهل صناعة الكلام علماء الكلام كالجاحظ (٢٥٥هـ) الذى قال فيه: وقد صنف الجاحظ فى نظم القرآن كتاباً لم يزد فيه على ما قاله المتكلمون قبله، ولم يكشف عما يلتبس فى أكثر هذا المعنى[3].

---

(١) انظر: القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية، د. رشاد سالم، ص٣١- ٣٢، ط١، دار المنار، مصر، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص٥، تحقيق السيد صقر، دار المعارف، مصر، ١٣٧٤هـ- ١٩٥٤م. والأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، ص٢٠، ط١، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ١٩٩٧م.

(٣) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص٧.

ولا ريب أن إتقان اللغة، وترقى وسائل أدائها وتنوعها، إنما هو انعكاس لما فى نظرة الأجيال التى عكفت على هذه اللغة، وصقلتها فصقلتهم، وهذبتها فهذبتهم، وأحكمتها فأحكمتهم، وأودعوها دقائق نفوسهم، فكانت فى اكتمال بيانها صورة لاكتمال سلائفهم[1].

لقد صادف الإسلام حين ظهوره لغة مثالية مصطفاه جديرة بأن تكون أداة التعبير عند خاصة العرب لا عامتهم، فزاد من شمول تلك الوحدة وقوى من أثرها بنزول قرآنه بلسان عربى مبين، هو ذلك اللسان المثالى المصطفى.

وقد وصفهم الرافعى بقوله: كالعرب أصحاب الفطرة اللغوية، والحس البيانى، الذين صرفوا اللغة، وشققوا أبيتها، وهذبوا حواشيها[2]، وجمعوا أطرافها، واستنبطوا محاسنها[3].

ولا يخفى أثر القرآن الكريم فى تهذيب اللغة من الحوشية، والسير بها إلى السهولة والمتانة ووضوح المقصد، والوصول إلى الغرض من أقرب مسالكه وأحكم أساليبه، لأن كثرة ترديد المسلمين لآياته على ألسنتهم فى صلاتهم وعباداتهم، وطول درسهم له وتفهمهم إياه، واستنباط أحكام دينهم وشريعتهم، والتأدب بعباراته وأمثاله، وإيجازه ومجازه وتشبيهه- أكسبهم إرهافاً فى الذوق وسمواً فى الحاسة الفنية وميلاً إلى محاكاة أساليبه وإيثار ألفاظه[4].

لقد صفى القرآن الكريم هذه اللغة، وأشاع فى الاستعمال أصفى ألفاظها جرساً، وأدقها تعبيراً وأحلاها نغماً، وأورد كل لفظة فى مكانها المناسب ببراعة فائقة، والتزم الدقة فى مراعاة دلالة الألفاظ وإيرادها مواردها بطريقة تعجز عنها الخلائق.

---

(١) انظر: الإعجاز البلاغي، د. محمد أبو موسي، ص١٥، ط١، مكتبة وهبة، ١٥٠٤هـ- ١٩٨٤م.

(٢) انظر: إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، هامش ص٢٢٥، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

(٣) انظر: مع القرآن الكريم في إعجازه اللغوي، د. رشاد سالم، ص٤٤.

(٤) لعلها «حوشيها.

اختيار الكلمة القرآنية وأثرها

الكلمة أصل الدقة فى التعبير، والوضوح فى المعنى، والصدق فى الدلالة؛ لأن الكلمة إذا تمكنت فى موضوعها الأصلى دلت على المعنى كله، فإذا حشرت حشراً أو قسرت قسراً دلت على بعض المعنى، أو ألجأت إلى غيره.

وفى اختيار الكلمة الخاصة بالمعنى إبداع، والكلمة فى الجملة كالقطعة فى الآلة، إذا وضعت فى موضعها على الصورة اللازمة والنظام المطلوب تحركت الآلة، وإلا ظلت جامدة[1].

وللكلمات أرواح- كما قال «موباسان»- فإذا استطعت أن تجد الكلمة التى لا غنى عنها، ولا عوض منها، ثم وضعتها فى الموضع الذى أعد لها، وهندس عليها، ونفخت فيها الروح التى تعيد لها الحياة، وترسل عليها الضوء، ضمنت الدقة والقوة والصدق والطبيعة والوضوح، وأمنت الترادف والتقريب والاعتساف[2].

ولا عجب أن نجد العرب فى عصورهم الأولى يجهدون أنفسهم فى اختيار هذه الكلمة والبحث عنها وانتقائها، مجندين لها ما منحوه من طاقات العقل، ودفقات الشعور، وجميل الأحاسيس، فلقد كانوا فى جاهليتهم يدركون ما للكلمة من شأن، أو ما تحدثه من أثر سلبى، فيقبلونها أو يردونها نتيجة معرفة وذوق.

ومن ذلك ما يروى عن حسان بن ثابت حينما أنشد:

لنا الجفنات الغُر يلمعن فى الضحى وأسيافنا يقطرن من نجده دما

فقيل له: لو قلت: (يسطعن فى الدجى)، ولو قلت: (يجرين) لكان أولى[3].

ويُعلمنا النبى ﷺ مكانة الكلمة وأصالتها فيقول: «لا يقولن أحدكم

---

(١) انظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، ص١٦٢، ط. دار الفرقان، ١٩٩١م.

(٢) انظر: مقدمة دفاع عن البلاغة للأستاذ أحمد حسن الزيات، مطبعة النهضة، ١٩٦٧م.

(٣) انظر: تاريخ آداب العرب للرافعي، ط٢، ١٣٧٣هـ- ١٩٥٣م.

خبُثت نفسى ولكن ليقل: لَقِست»[1].

والمتبع لآداب العرب ومساجلاتهم فى أسواقهم يجد كثيراً من ذلك، والحق أن الذوق السليم يجد فرقاً شاسعاً بين الكلمة الجيدة وغيرها من الكلمات الممجوجة.

وإذا كان هذا فى كلام الناس، فهو فى كلام الله المتناهى فى البلاغة أكثر وضوحاً وأشد ظهوراً.

يقول الإمام ابن عطية رحمه الله تعالى:

«وكتاب الله لو نزعت منه لفظة، ثم أدير لسان العرب على لفظة غيرها لم يوجد، ونحن يتبين لنا البراعة فى أكثره، ويخفى علينا وجهها فى مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب- يومئذ- فى سلامة الذوق وجودة القريحة»[2].

وما قاله ابن عطية كلام حرى بالتقدير، جدير بالدراسة، ذلك أن المفردات القرآنية لها خصائص ومميزات: جمال وقعها، واتساقها الكامل مع المعنى، واتساع دلالتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

فالمفردات القرآنية -إذن- مفردات مختارة منتقاة. ولا أدل على ذلك من أننا حين ننظر فى المعاجم اللغوية نجدها زاخرة بالألفاظ الكثيرة، ولكل مادة اشتقاقاتها الكثيرة المتعددة، وهى من حيث الفصاحة والخفة ليست سواء أولاً، وقد تدار الكلمات الكثيرة على معنى واحد ثانياً، أما كتاب الله فيخص كل لفظ بمعنى لا يتعداه[3].

لقد اختيرت ألفاظ القرآن اختياراً يتجلى فيه وجه الإعجاز، فمنذ نزل القرآن الكريم إلى اليوم مرت قرون وقرون، وأتت أجيال وأجيال، كل جيل يفهم ما يناسب تفكيره، ويلائم ذوقه، ويوائم معارفه، وتأتى أجيال أخرى تفهم من هذه الألفاظ بعينها غير ما فهمته الأجيال الأولى.

قال الراغب فى مفرداته:

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) انظر: فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة المحمدية حتي عصرنا الحاضر، نعيم الحمصي، ص٩٥، ط٢، مؤسسة الرسالة، ١٤٠٠هـ- ١٩٨٠.

(٣) انظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، وسناء فضل، ص١٦٦.

فألفاظ القرآن هى لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء فى أحكامها وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء فى نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة»[1].

انظر إلى قوله تعالى في وصف كل من الليل والصبح: ﴿**والليل إذا عسعس. والصبح إذا تنفس**﴾[2]، ألا تشم رائحة المعنى قوية من كل من هاتين الكلمتين: عسعس، وتنفس؟

ألا تشعر أن الكلمة تبعث فى خيالك صورة المعنى محسوساً مجسماً دون حاجة للرجوع إلى معاجم اللغة؟

وهل تستطيع أن تصور إقبال ظلام الليل، وتمدده فى الآفاق المترامية بكلمة أدق من عسعس؟ أو هل تستطيع أن تصور انفلت الضحى من مخبأ الليل وسجنه بكلمة أروع من تنفس؟

بل هل تجد فى المعاجم أدق من هاتين الملمتين فى التعبير عن هذين المعنيين؟[3].

إن الكلمة القرآنية منتقاة بدقة متناهية، وموضوعة فى سبك رائع قوى يظهر معه استواء كل كلمة فى محلها اللائق بها، بما لا يجعل أى كلمة أخرى من الألفاظ المقاربة لها فى المعنى تقوم مقامها، وتؤدى كامل معناها بصوره وظلاله، وبروعته وجماله.

ونحن حين نفسر المفردات القرآنية بكلمات أخرى لا تقوم بأكثر من تقريب المعنى، ليكون فى متناول فهم من ندت عنه معانى هذه الكلمات لسبب أو لآخر، فالتفسير إنما هو من باب التقريب لا التحديد الدقيق.

بل إن حركات الكلمات لها إيحاءاتها ومدلولاتها الخاصة بها بما لا تؤديه ذات الكلمة حين تتغير حركاتها وسكناتها، فالنظر إلى لفظة «يذبحون»

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، ص٦، المقدمة، مكتبة الأنجلو المصرية، بإشراف د. محمد خلف الله.

(٢) سورة التكوير: ١٧- ١٨.

(٣) انظر من روائع القرآن، د. محمد سعيد البوطي، ص١٤٢، ط٢، مكتبة الفارابي، دمشق، ١٩٧٠م.

فى قوله تعالى: ﴿**وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾[1] يوحى بأكثر من معنى، فهى تصور ما حدث أولاً، وتوحى بكثرته ثانياً، وتدل على نوعه ثالثاً إضافة إلى ما تشير إليه من استسلام الذبيح وانقياده من غير أن يملك حولاً، أو يكون له طول يدفع به هذا العذاب عنه.

وفى هذا تصوير لحالة اليهود السيئة، ووضعهم الذليل بين يدى فرعون، ومن ثم يفهم كم كانت نعمة الله عليهم ببعث موسى إليهم لإنقاذهم من سوء العذاب وربقة الذل!

وبعض هذه المعانى لا تدل عليه هذه اللفظة من غير تشديد (يذبحون)، فضلاً أن تؤديها أو تسد مسدها كلمة أخرى كيقتلون[2].

وتنكير كلمة «حياة» فى قوله تعالى: ﴿**ولتجدنهم أحرص الناس على حياة**﴾[3]. يعبر تعبيراً دقيقاً عن حرص هؤلاء الناس على مطلق حياة يعيشونها، مهما كانت حقيرة القدر ضئيلة القيمة.

وعندما أضيفت هذه الكلمة إلى ياء المتكلم فى قوله تعالى: ﴿**وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى. يقول يا ليتنى قدمت لحياتى**﴾[4]، عبرت أدق تعبير عن شعور الإنسان يومئذ، وقد أدرك فى جلاء ووضوح أن تلك الحياة لم تكن إلا وهماً باطلاً، وسراباً خداعاً، أما الحياة الحقة فهى تلك التى بعد البعث، لأنها دائمة لا انقطاع لها، فلا جرم أن سماها حياته، وندم على أنه لم يقدم عملاً صالحاً ينفعه فى تلك الحياة.

واستمع إلى قوله تعالى: ﴿**إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً. فوقاهم**

---

(١) سورة البقرة: ٤٩.

(٢) الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د. محمد الشايع، ص ١٧٣- ١٧٤، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م. وانظر: التعبير الفني في القرآن، د. بكري شيخ أمين، ص١٨٨. ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٩٤م. وإعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، ص٢٢٣، مطابع الأهرام التجارية، سنة ١٣٩٠هـ. وفكرة النظم بين وجوه الإعجاز في القرآن الكريم، د. فتحي أحمد عامر، ص١٣٤، القاهرة، ١٣٩٥هـ.

(٣) سورة البقرة: ٩٦.

(٤) سورة الفجر: ٢٣- ٢٤.

الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا﴾[1].

نجد كلمة «العبوس» قد استعملت أدق استعمال لبيان نظرة الكافرين إلى ذلك اليوم، فإنهم يجدونه عابساً مكفهراً، وما أشد اسوداده، فيه يفقدون الأمل والرجاء.

وكلمة «قمطريراً» يثقل طائها مشعرة بثقل هذا اليوم.

وفى كلمتى «النضرة والسرور» تعبير دقيق عن المظهر الحسى لهؤلاء المؤمنين، وما يبدو على وجوههم من الإشراق، وعما يملأ قلوبهم من البهجة[2].

ونقرأ قوله سبحانه: ﴿**عتل بعد ذلك زنيم**﴾[3]، فنجد البلاغة فى أرفع منازلها، ولا نجد لفظاً يمثل الجفوة والغلظة ووحشة الطباع مثل هذه اللفظة.

ونتأمل قوله تعالى: ﴿**فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب**﴾[4]، فنجد كل لفظ فى التعبير قد رسم صورة مذعور يلتفت فى كل جانب خوفاً وطلباً لموضع الأمن.

وهكذا نجد ألفاظ القرآن الكريم تمثل المعنى تمثيلاً دقيقاً رائعاً كاملاً غير منقوص.

ومن يطالع أسفار الدارسين القدامى يجد أن هذه المادة وفيرة، وذلك لأسباب عدة منها:

- أنهم ناضلوا بإخلاص جاهدين للرد على الملاحدة الذين يدعون التناقض فى القرآن الكريم، والخطل فى استعمال مفرداته.
- يضاف إلى هذه الغاية الدينية الخالصة محبتهم العميقة لأسلوب كتاب دنياهم وأخراهم، فمنه استلهموا أسس حياتهم، وأرسوا قواعد مجدهم، وهذا مما حدا بهم إلى إبراز جماليات دقة الاختيار فى الكتاب المعجز.
- وفرة الثروة اللغوية، فأكثرهم لغوى متمعن، كما يظهر فى مناقشاتهم، ومنهم من كان ذا مكانة كبيرة فى اللغة كالزمخشرى والسيوطى.

---

(١) سورة الإنسان: ١٠- ١١.
(٢) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص٥٨.
(٣) سورة القلم: ١٣.
(٤) سورة القصص: ١٨.

- قرب عهدهم بزمن الفصاحة، لذلك وجد المحدثون الكفاية فى كتب أسلافهم ووقفات المحدثين على قلتها تتسم بالغنى والعمق[1].

إن لاختيار الألفاظ فى القرآن الكريم جوانب متعددة، من حيث الدلالة على المعنى دلالة فائقة الوضوح، فقد تعبر الكلمة بجرسها عن المعنى، وقد يراعى فى اختيارها مشاكلة الفواصل، وقد تندرج ضمن فن بلاغى يزيد المعنى وضوحاً، إلا أن ذلك وغيره ينبع من أصل كبير، وهو الدقة المتناهية فى الاختار، لأن أسلوب القرآن الكريم يتأنق فى اختيار ألفاظه تأنقاً فائقاً، يلحظ فيه الفروق الدقيقة بين معانى الكلمات، فيستعمل منها ما يؤدى المعنى فى دقة فائقة، تشعر قارئه كأن هذا المكان إنما خلقت له تلك الكلمة بعينها، وأن كلمة أخرى لا تستطيع توفية المعنى الذى وفت به أختها، فكل لفظة وضعت لتؤدى نصيبها من المعنى أقوى أداء(٢).

ذلك أن الأصل فى الكلام هو الإبانة عن الأغراض التى فى النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخير من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح فى الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس[3].

لقد نزل القرآن الكريم بلسان عربى مبين، وهذا يعنى أنه اختيار من بين إمكانات لغوية كثيرة، أتاحتها ثروة العربية وغناها، ثم إنا إذا فصلنا بين اختيار متكلم من البشر، واختيار خالق كل شئ، تبين لنا وجه مفارقة الأسلوب القرآنى للأسلوب البشرى، من حيث إن طبيعة الإنسان مهما كانت ثقافته، ومهما اتسعت معارفه تجعله لا يستطيع أن يطوع ألفاظ اللغة لكل ما يتصوره، من دقائق المعانى ولطائف الأخيلة، فهو كثيراً ما يضطر إلى النزول عن بساط خياله المحلق، لحاقاً بكلمة هى دون خياله الخصيب.

بيد أن القرآن الكريم لا يعجزه إطلاقاً أن تكون الكلمة دوماً فى مستوى المعنى المراد، على أدق وجه، وفى أكمل صورة، وهذا سر إعجازه وآية من آيات بلاغته وروعته[4].

---

(١) انظر: جماليات المفردة القرآنية، ص٢٩٥، د. أحمد ياسوف، دار المكتبي، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.

(٢) انظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ص٥٧، وانظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن، الكواز، ص٢٧١.

(٣) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص١١٧.

(٤) انظر: مباحث في إعجاز القرآن، د. أحمد جمال العمري، ١٩٨٠، مكتب الشباب، مصر ص١٥٤.

ولهذا قيل: إن كلام الله جل ثناؤه أعلى وأرفع من أن يضاهى أو يقابل أو يعارض به كلام، وكيف لا يكون ذلك كذلك وهو كلام العلى الأعلى خالق كل لغة ولسان[1].

سبب ذلك كما هو معروف أن عنصر الاختيار فى الأسلوب القرآنى متصل بقدرته سبحانه وتعالى، وأما على مستوى الناس فمهمة اللغة التعبير عما يدور بخلدهم، ويجول بخواطرهم، وهم يستعينون باللغة على ذلك، ولكن قدراتهم تتفاوت فى مدى نجاحها فى مهمة التعبير عن المعنى الذى يختلج فى النفوس، من حيث اختيار الألفاظ الملائمة إذ إن فى الألفاظ الخفة والثقل، وفى الحروف التلاؤم والتنافر، ومن الكلمات ما يكرهه السمع ويمجه الطبع، ومنها ما هو جميل الوقع على الأذن، حسن الأثر فى النفس، مع ما امتازت به العربية من كثرة الألفاظ والأساليب حتى قيل: «إن لسان العرب أوسع الألسنة مذهباً وأكثرها ألفاظاً، ولا نعلمه يحيط بجميع علمه إنسان غير نبى»[2].

هذا من جانب، وقد يعبر- من جانب آخر- عن المعنى الواحد بألفاظ بعضها أحسن من بعض، أو قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الألفاظ بعضها من بعض، ولابد في هذا من استحضار معانى الجمل، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ، ثم استعمال أمسها رحماً بالمعنى، وأفصحها فى الدلالة عليه، وهذا أمر متعذر على البشر فى أكثر الأحوال، وهو عنيد حاصل فى علم الإله، ولذلك كان القرآن أفصح الحديث وأحسنه[3].

إن رصد الدقة فى اختيار الألفاظ فى القرآن الكريم، ومقارنتها بما عند الناس، يظهر لنا جانباً من مفارقة الأسلوب القرآنى لأساليب البشر، وخرقه لعادتهم فى التعبير عن المعانى.

قال الجاحظ: «وقد يستخف الناس ألفاظاً فيستعملونها وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر فى القرآن «الجوع» إلا فى موضع العقاب، أو فى موضع الفقر المدقع، والعجز الظاهر، والناس لا يذكرون

---

(١) انظر: الصاحبي لابن فارس، ص٤١، تحقيق مصطفي الشويحي، ١٣٨٢هـ، مؤسسة بدران، بيروت.

(٢) انظر: الرسالة للإمام الشافعي تحقيق أحمد محمد شاكر، ط١، ١٣٥٨هـ- ١٩٤٠، مطبعة مصطفي الحلبي، مصر، ص٤١.

(٣) انظر: الإشارة إلي الإيجاز في بعض أنواع المجاز للعز بن عبد السلام، ص٢٥٧، مطابع الفكر، دمشق.

السغب، ويذكرون الجوع فى حال القدرة والسلامة، وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القرآن يلفظ به إلا فى موضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصون بين المطر وذكر الغيث.. والجارى على أفواه العامة غير ذلك لا ينتقون من الألفاظ ما هو أحق بالذكر وأولى بالاستعمال»[1].

وتتجسد عظمة الاختيار القرآنى ودقته فى كونه عمود بلاغة القرآن، بحيث إذا أبدل اللفظ بغيره تبدل المعنى المقصود، أو ذهب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغى كما قال الخطابى[2].

وهذه ملاحظة قديمة تقف اليوم فى صفوف الدراسات الأسلوبية الحديثة، فهى مبنية على الاهتمام بالفروق الدقيقة بين الكلمات، حيث تصلح الكلمة لمعنى لا تصلح له أخواتها[3].

ولابد أن نقرر هنا أن عدم التحديد المنضبط لمفهوم الكلمة القرآنية قد حرم الناس من فوائد كثيرة، وحال بينهم وبين إدراك متكامل لمدلول الكلمة القرآنية، وسد أمامهم أبواب الوعى الدقيق لكثير من الآيات الكريمة.

ونعترف أن كثيراً من كتب التفسير والمعاجم اللغوية كانت سبباً فى ذلك كله، حيث التقت هذه الكتب والمعاجم على أن تعطى المعنى القريب للكلمة القرآنية فتشتبه المعانى وتختلط بعضها ببعض[4].

وإذا كان بعض العلماء يعد الترادف من خصائص اللغة ومفاخرها فإن كثيرين وقفوا من الترادف موقف السلبية والإنكار.

ولا يعنينا تفصيل هذه القضية -هنا- والذى نطمئن إليه- وقد اطمأن إليه كثيرون قبلنا- أن لا ترادف فى كتاب الله تبارك وتعالى، والكلمات التى ظنها بعض الناس مترادفة عندما ننعم النظر فيها نجد أن لكل معناها الدقيق.

وفيما سيطرحه البحث من نماذج فى الصفحات الآتية ما يؤكد ذلك، وينمى وعينا اللغوى بتفرد القرآن وتأنقه فى اختيار كلماته، وتميزه فى دقة التعبير وملاءمة المعنى.

---

(١) انظر: البيان والتبيين ١/ ٢٠، تحقيق عبد السلام هارون، ١٣٦٧هـ- ١٩٤٨، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.

(٢) انظر: بيان إعجاز القرآن للخطابي، ص٢٦ (ضمن رسائل) تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر.

(٣) انظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن، الكواز، ص٢٧٩.

(٤) انظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل عباس، وثناء فضل، ص١٧١.

الحمد - الشكر

بدأ الله عزوجل كتابه الكريم بقوله: ﴿**الحمد لله رب العالمين**﴾ وقد جاء ذكر «الحمد» بتصاريفه المختلفة فى القرآن الكريم ثمان وستين مرة[1] وورد «الشكر» بمختلف صوره خمساً وسبعين مرة، منها قوله تعالى: ﴿**فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون**﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿**وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد**﴾[3].

وقد ذهب بعض المفسرين إلى أن الكلمتين معناهما واحد، لكن المحققين ذهبوا إلى غير هذا المذهب: فالحمد هو الثناء على الجميل من نعمة أو غيرها مع المحبة والإجلال، والحمد: أن تذكر محاسن الغير، سواء أكان ذلك الثناء على صفة من صفاته الذاتية كالعلم والصبر والرحمة والشجاعة، أم على عطائه وتفضله على الآخرين. والألف واللام فيه لاستغراق جنس المحامد.

ولا يكون الحمد إلا للحى العاقل، وهذا من أشهر ما فرق بينه وبين المدح، فإنك قد تمدح جماداً، وقد تمدح حيواناً، ولكن لا تحمده، جاء فى تفسير الرازى[4]: «إن المدح قد يحصل للحى ولغير الحى، ألا ترى أن من رأى لؤلؤة فى غاية الحسن، أو ياقوتة فى غاية الحسن فإنه قد يمدحها، ويستحيل أن يحمدها، فثبت أن المدح أعم من الحمد».

كما أن الحمد لا يكون إلا بعد الإحسان، فإن الحمد يكون لما هو حاصل من المحاسن فى الصفات أو الفعل، فلا يحمد من ليس فى صفاته ما يستحق الحمد، ولا يحمد من لم يفعل جميلاً، أما المدح فقد يكون قبل ذلك، وقد يكون بعده، فقد تمدح إنساناً ولم يفعل شيئاً من المحاسن والجميل، ولذا كان المدح منهياً عنه بخلاف الحمد فإنه مأمور به، قال ﷺ: «احثوا التراب فى وجوه المداحين» فى حين قال: «من لم يحمد الناس لم يحمد

---

(١) راجع الإحصاء في «معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة، ١/ ٢٩٧، ٦٤٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ١/ ١٤٥. ط٢، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م.

(٢) سورة البقرة ١٥٢. (٣) سورة إبراهيم ٧.

(٤) انظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) ١/ ٢١٨، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨١م.

الله»، وبذا علمنا من قوله سبحانه ﴿الحمد لله﴾ أن الله حي له الصفات الحسنى والفعل الجميل، فحمدناه على صفاته وعلى فعله وإنعامه، ولو قال: (المدح له) لم يفد شيئاً من ذلك[1].

والشكر عبارة عن معروف يقابل النعمة، سواء أكان بالقول أم الفعل أم الاعتقاد.

وعرف الراغب الأصفهانى[2] الشكر بأنه تصور النعمة وإظهارها. ويؤيد هذا أصل مادة الكلمة واشتقاقها فى اللغة، فقد قيل: إن الشكر مقلوب عن الكشر، وهو الكشف، وضده الكفر، وهو نسيان النعمة وسترها.

وفى أساس البلاغة للزمخشرى[3]: «كاشرته وشاكرته»: أريته أنى شاكر له».

والشكر فى اللغة مأخوذ من شكرت الإبل تشكر: إذا أصابت مرعى فسمنت عليه، وظهر عليها أثر ذلك.

ومنه يقال: دابة شكور: مظهرة بسمنها إسداء صاحبها إليها، حيث يكفيها قليل العلف وتسمن عليه[4].

وفرقوا بين الحمد والشكر فقالوا:

- إن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلى غيرك، وأما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك، فأنت تشكر الشخص إذا أوصل إليك نعمة، وتحمده على إنعامه لك أو لغيرك[5].

ومن جهة أخرى فإن الشكر لا يكون إلا على نعمة، ولا يكون على الصفات الذاتية، فإنك لا تشكر الشخص على علمه أو على قدرته، وقد تحمده على ذلك.

---

(١) انظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، للدكتور فاضل الشامرائي، ص١٢، ط١، دار عمار، الأردن، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

(٢) مفردات الراغب الأصفهاني، ص٣٨٩.

(٣) انظر: أساس البلاغة للزمخشري، مطابع دار الشعب، مصر ١٩٦٠.

(٤) انظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن للشايع، ص٢١٩، ط١، مكتبة العبيكان، الرياض، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.

(٥) انظر: السابق نفسه، وتفسير الرازي، ١/ ٢١٩.

جاء فى لسان العرب: «والحمد والشكر متقاربان، والحمد أعمهما، لأنك تحمد الإنسان على صفاته الذاتية وعلى عطائه، ولا تشكره على صفاته»[1]، فكان اختيار الحمد أولى من الشكر لأنه أعم، فإنك تثنى عليه بنعمه الواصلة إليك وإلى الخلق أجمعين، وتثنى عليه بصفاته الحسنى الذاتية، وإن لم يتعلق شئ منها بك. «أما الشكر لله فهو ثناء بسبب إنعام وصل إليك، ولاشك أن الأول أفضل، لأن التقدير كأن العبد يقول: سواء أعطيتنى أو لم تعطنى فإنعامك واصل إلى كل العالمين، وأنت مستحق للحمد والتعظيم»[2].

- إن الحمد ضده الذم، وضد الشكر الكفر، يقول سبحانه: **﴿قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفس ومن كفر فإن ربى غنى كريم﴾**[3].

وكما هو معروف: بضدها تتميز الأشياء وتتضح الفروق[4].

- إن الحمد يكون على المحبوب والمكروه، ولا يحمد على المكروه سوى لله عزوجل، فعن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت: ان النبى ﷺ إذا أتاه الأمر يسره قال: «الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات»، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: «الحمد لله على كل حال»[5].

بخلاف الشكر إذ لا يكون إلا على المحبوب، لأنه يقابل المعروف والنعم، وهى أشياء محبوبة مرغوبة[6].

- إن الحمد أعم من أن يكون مقابل نعمة فقط، بل يكون الحمد ابتداء بمعنى الثناء، فأنت تقول: حمدت فلاناً إذا أثنيت عليه فى أخلاقه وخصاله ومذاهبه وصفاته، وإن لم يسبق إليك منه معروف.. أما الشكر فلا يكون إلا مقابل نعمة ومعروف، فهو يجرى مجرى قضاء الدين، إذ هو رد

---

(١) انظر: لسان العرب (حمد)، ١٣٣/٤، تقديم العلايلي، وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيوت.

(٢) انظر: التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، للفخر الرازي، ١/ ٢١٨، ٢١٩.

(٣) سورة النمل ٤٠.

(٤) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للخطابي والرماني والجرجاني، ص٣٠.

(٥) أخرجه الحاكم في مستدركه وصححه ١/ ٤٩٩.

(٦) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢٢٠.

للجميل واعتراف به ونشر له، ولهذا قيل: الشكر على ما توجبه النعمة، والحمد على ما توجبه الحكمة[1].

يقول الراغب الأصفهانى: «الحمد هو الثناء بالفضيلة، والشكر مقابلة النعمة قولاً وعملاً، ولما كانت النعمة لا تخرج من كونها فضيلة صار الحمد منطوياً على معنى الشكر، فكل شكر حمد، وليس كل حمد شكراً». ويقول مكى بن أبى طالب: «الحمد أعم من الشكر وأمدح»[2].

وقد جاء الشكر مقترناً بالنعمة فى أكثر من آية، منها قوله تعالى: ﴿**وقال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت على وعلى والدى..**﴾[3]. وقوله سبحانه: ﴿**ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد**﴾[4]، وأكرم بالحكمة من نعمة.

– ما جاء من تعاطفهما فى أكثر من حديث وأثر، جرياً على أن الأصل فى العطف المغايرة، وإلا لما كان للجمع بينهما معنى ولا فائدة، فعن أبى أمامة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال: «عرض علىّ ربى عزوجل ليجعل لى بطحاء مكة ذهباً، فقلت: لا يارب، ولكن أشبع يوماً وأجوع يوماً –أو نحو ذلك– فإذا جعت تضرعت إليك وذكرتك، وإذا شبعت حمدتك وشكرتك». وفى رواية الترمذى: «.. وإذا شبعت شكرتك وحمدتك»[5]، وفى حديث آخر: «فكبرت الله وحمدت وشكرت»[6].

---

(١) انظر: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص٣٠، والفروق في اللغة لأبي هلال العسكري، ص٤٠، ط٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٧م. وزاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ١/ ١١، ط٢، المكتب الإسلامي للطباعة والنشر، ١٣٨٤هـ.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، للشايع، ص٢٢٣.

(٣) سورة النمل ١٩. (٤) سورة لقمان: ١٢.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، باب الزهد، الحديث ٢٣٤٨، ج٧، ص٩٤. وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٥/ ٢٥٤.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في المسند، ١/ ٣١١. وانظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢١٦.

الكمال - التمام

هناك فرق دقيق بين الكمال والتمام يدق على بعضهم إدراكه، فاللفظان وإن كانا يتفقان معجمياً فى الدلالة على معنى واحد هو: إزالة النقص، فإنهما يفترقان بعد ذلك، إذ يختص الإتمام- كما ذكر بعض المفسرين- بالدلالة على إزالة نقصان الأصل، والإكمال بالدلالة على إزالة نقصان العوارض بعد تمام الأصل.

ولهذا كان قوله تعالى: **﴿فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة﴾**[1] أحسن وأبلغ من «تلك عشرة تامة» لأن التمام فى العدد قد علم بإضافة الثلاثة إلى السبعة، لكن بقى احتمال نقص فى الأوصاف، وهو ما نفاه وصفها بالكمال، ولهذا يقال: «رجل كامل» إذا كان جامعاً للمناقب وخصال الخير، فهو متكامل الأوصاف.

بينما يقال: «رجل تام» إذا كان غير ناقص الطول، فـ «ثم» تشعر بحصول نقص قبل التمام، و«كمل» لا تشعر بذلك[2].

ومما يشعر بوجود الفرق بينهما أنهما جاءا متعاطفين فى قوله تعالى: **﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا﴾**[3].

والقاعدة تقول: إن العطف يقتضى المغايرة، تغليباً للتأسيس على التأكيد.

يقول أبو هلال العسكرى: (الكمال) اسم لاجتماع أبعاض الموصوف به.. و(التمام) اسم للجزء والبعض الذى يتم به الموصوف بأنه تام. ولهذا قال

---

(١) سورة البقرة: ١٩٦.

(٢) انظر: الفروق اللغوية، للشايع، ص ٢٦، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، ٩١، ٩٢، تحقيق د. خديجة الحديثي ود. أحمد مطلوب، ط١، ١٣٩٤، مطبعة العاني، بغداد. والبرهان في علوم القرآن للزركشي، ٤/ ٨٤، ٨٥، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧م. والإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ١/ ١٩٥، ط٣، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٣٧٠هـ.

(٣) سورة المائدة: ٣.

أصحاب النظم: القافية تمام البيت، ولا يقال كمال البيت، ويقولون: البيت بكماله أى باجتماعه، والبيت بتمامه أى بقافيته. ويقال: هذا تمام حقك للبعض الذى يتم به الحق، ولا يقال: كمال حقك[1].

وعلى أساس هذا الفارق -والله أعلم- أوثرت لفظة «الإكمال» مع الدين، وذلك للدلالة على أن أصل هذا الدين بمعنى الإسلام أو عقيدة التوحيد هو أساس ثابت لا يحتمل زيادة أو نقصاً فى كل الأديان والشرائع السماوية ﴿**إن الدين عند الله الإسلام**﴾[2].

ذكر ابن عباس والسدى فى تفسير المراد بإكمال الدين من أنه: «اليوم أكملت لكم حدودى وفرائضى وحلالى وحرامى بتنزيل ما أنزلت، وبيان ما بينت لكم، فلا زيادة فى ذلك ولا نقصان فيه بالنسخ بعد هذا اليوم»[3].

ولعل مما يؤيد هذا الرأى أن سورة المائدة التى نزلت فيها تلك الآية الكريمة قد جاءت حافلة بتشريع الأحكام فى التحليل والتحريم والغسل والطهارة والسرقة والقصاص والخمر وما إلى ذلك من أحكام، هذا فضلاً عن أن الآية التى نحن بصددها قد صدرت بالنص على بعض ألوان التحريم ﴿**حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير..**﴾.

ولعل مما يؤيده-أيضا- تخصيص الإكمال بالمخاطبين من المسلمين، ثم إضافة الدين إلى الضمير العائد عليهم ﴿لكم دينكم﴾، ففى هذا وذاك دليل على أن متعلق الإكمال ليس هو أصل الدين الثابت فى كل الشرائع السماوية، بل هو ما قررته تلك الشريعة الخاتمة من أصول التشريع والأحكام التى لا تقبل زيادة ولا نسخاً.

أما العدول عن لفظ الإكمال إلى لفظ الإتمام فى الآية الكريمة فذلك لأن متعلق الإتمام هو النعمة التى ظفر بها المسلمون تدريجياً، حتى أوفت على غايتها عند نزول تلك الآية التى ذكر المفسرون أنها قد نزلت يوم عرفة فى

---

(١) انظر: الفروق في اللغة، لأبي هلال العسكري، ص٢٥٨، والفروق اللغوية للشايع، ص٢٦٠.

(٢) سورة آل عمران: ١٩.

(٣) انظر: روح المعاني للألوسي، ٦/ ٦٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت. وتفسير البيضاوي، ٢/ ١٣٥، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت. والكشاف للزمخشري، ١/ ٣٢٣، وتفسير أبو السعود، ٣/٧، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

حجة الوداع والنبى ﷺ بعرفات[1].

ونحن بذلك نرجح الرأى القائل فى تفسير النعمة بأنها نعمة ظهور الدين، ونصر المسلمين على أعدائهم، وأن تمامها كان بفتح مكة ودخولهم لها آمنين ظاهرين.

ولعل مما يدعم هذا الرأى قوله سبحانه قبل ذلك فى الآية ذاتها، مخبراً عما آل إليه الأمر الكفار من قهر وإذلال: **﴿اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون﴾**.

وبناء على ذلك نقول: إن فى العدول عن لفظ الإكمال إلى لفظ الإتمام فى ﴿وأتممت عليكم نعمتى﴾ لفتاً للمسلمين إلى تذكر فضل الله سبحانه فى هذا النصر المظفر الذى نالوه بعد أن كان مجرد أمنيات تجول فى خواطرهم وتتطلع إلى تحققها نفوسهم[2].

---

(١) انظر: أسباب النزول للسيوطي، ١٢٦/ ١٢٧. وبصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي. ١/ ١٧٨، تحقيق محمد علي النجار والطحاوي، ط. المجلس الأعلي للشؤون الإسلامية، القاهرة ١٩٦٣م.

(٢) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية ص١٦١، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة ١٤١٨هـ- ١٩٩٨.

الأكل - الافتراس

فى سورة يوسف التى وصفها الله عزوجل بأحسن القصص، قال الله تعالى فى مشهد من مشاهد هذه القصة الخالدة: **﴿قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾**[1].

والذى يلفت النظر فى هذه الآية الكريمة أن الله عزوجل قال: ﴿فأكله﴾ ولم يقل «فافترسه»، والشأن فى هذه السباع أن تفترس، ونحن نقول: سباع مفترسة ولا نقول: سباع آكلة.

والوصف الذى يناسب السباع من أسود ونمور وذئاب وفهود وضباع أنها مفترسة.

على حين نقول: خراف تأكل الحشيش، وكذا الأبقار والإبل.

جاء فى لسان العرب: فرس الشئ فرساً: دقه وكسره، وافترس الدابة أخذها فدق عنقها، والأصل فى الفرس (بسكون الراء) دق العنق، ثم كثر حتى جعل كل قتل فرساً وافترسه صاده، ومثل ذلك ورد فى «القاموس المحيط» من المعاجم.

فالافتراس إذن القتل بقصد الأكل، ولكنه ليس الأكل التام الذى لا يبقى من الفريسة أى أثر.

أما الأكل فهو مضغ الطعام وبلعه، يقال: أكلته النار أفنته.

فاللغة -إذن- تفرق بين دلالة الأكل والافتراس، فإذا حملنا هذ الفرق فى الدلالة ونظرنا فى قصة يوسف عليه السلام علمنا أى إعجاز هذا الذى تصنعه آيات القرآن الكريم.

إن إخوة يوسف أضمروا أن يلقوا يوسف فى غيابة الجب، ليلتقطه بعض السيارة ويذهبوا به بعيداً عنهم وعن أبيهم حتى يخلو لهم وجه أبيهم، وهذا لا يتسنى لهم إلا إذا تخلصوا من يوسف نهائياً، ولذلك اختلقوا قصة أكل الذئب له، ولكى لا يبقى منه أى أثر يدل على فعلتهم قالوا لأبيهم: ﴿أكله الذئب﴾ وأتى على جميع أجزائه وأعضائه، فلم يترك مفصلاً ولا عظماً. ولو

(١) سورة يوسف: ١٧.

قالوا: افترسه الذئب، أى قتله ونهشه وأكل شيئاً من جسده، لطالبهم أبوهم بجنته.

ولذلك كشف الله عزوجل حقيقتهم، وبيّن بكلمة واحدة الخطة الخبيثة التى رسموها وحديث النفس الذى بيتوه، ولذلك قال: ﴿فأكله الذئب﴾، لكى يبين أنهم لا يريدون أن يبقى منه أى أثر، ولكى يبرهنوا على ذلك جاءوا على قميصه بدم كذب، وليتهم لم يفعلوا، لأن هذا الفعل كان أصدق شاهد على كذبهم.

ويروى أن يعقوب عليه السلام عندما شاهد القميص المضمخ بالدم قال: «ما ألطف هذا الذئب، يأكل ابنى دون أن يمزق قميصه!» وفى الآية الكريمة وصف لدخائل نفوسهم، إذ تقول على لسانهم: ﴿**وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين**﴾، فما الذى دعاهم إلى هذا القول؟ دعاهم إلى هذا القول يقينهم بأنهم كاذبون وخوفهم من أن يكشف أبوهم حقيقة كيدهم.

وهذا يشبه ما نقوله الآن: «كاد المريب أن يقول خذونى»[1].

وهكذا تتجسد عظمة الاختيار القرآنى ودقته فى كونه عمود بلاغة القرآن، بحيث إذا أبدل اللفظ بغيره تبدل المعنى المقصود، أو ذهب الرونق الذى يكون معه سقوط البلاغة كما قال الخطابى[2].

---

(١) انظر: شواهد في الإعجاز القرآني، د. عودة أبو عودة، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، دار عمار، الأردن، ص١٣٣، ١٣٤.

(٢) انظر: إعجاز القرآن الكريم (ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، ص٢٦.

الحياة - الحيوان

في قول الحق تبارك وتعالى في سورة العنكبوت: ﴿**وما هذه الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون**﴾[1].

الحياة والحيوان بمعنى واحد، إذ إن كلا منهما هي مصدر للفعل (حي)، غير أن في الثانية من المبالغة في أداء هذا المعنى ما ليس في الأولى، كما أنها تدل على المراد دلالة لا تصلح لها كلمة أخرى، إذ أن المراد وصف حياة الدار الآخرة بأن ليس فيها إلا حياة مستمرة دائمة خالدة لا موت فيها، فكأنها في ذاتها حياة، وهذا ما لا تقوم به دلالة كلمة «حياة»، فجاءت كلمة «الحيوان» وفي بنائها زيادة معنى ليس في بناء الحياة، وهو -كما يقرر بعض المفسرين- ما في بناء (فعلان) بفتح العين من معنى الحركة والاضطراب كالنزوان والنغصان واللهبان وما أشبه ذلك، والحياة حركة كما أن الموت سكون، فمجيئه على بناء دال على معنى الحركة مبالغة في معنى الحياة، ولذلك اختيرت على «الحياة» في هذا الموضع المقتضى للمبالغة»[2]، أي أن هذه الدار من حق الحياة فيها أن تدوم ولا تنقطع، ومن حقها أن يدوم نعيمها بلا بؤس، وأن يتصل بلا مشقة[3].

وقد بين الفخر الرازي وجه الملاءمة بين صيغة الحيوان والحياة الأخروية فقال: «إن هذه الحياة لما كانت فيها الزيادة والنمو كما قال تعالى: ﴿**للذين أحسنوا الحسنى وزيادة**﴾[4].

وكانت هي محل الإدراك التام الحق، كما قال تعالى: ﴿**يوم تبلى السرائر**﴾[5]، أطلق عليها الاسم المستعمل في النامي المدرك.

في التحول إلى صيغة «الحيوان» مع الدار الآخرة-إذن- مبالغة في تحقيق معنى الحياة في تلك الدار، والإشعار بأنها هي الجديرة بأن تسمى

---

(١) سورة العنكبوت: ٦٤.

(٢) انظر: التفسير الكبير الرازي ١/ ٢١٨، ٢١٩.

(٣) انظر: الكشاف للزمخشري ٣/ ٢١١، ٢١٢، وانظر: الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، ص٢٧٥.

(٤) سورة يونس: ٢٦. (٥) سورة الطارق: ٩.

حياة، وقد حفلت الآية الكريمة بما يدعم هذا التحول، ويعمق دلالته على سمو الحياة الأخروية بالقياس إلى الحياة الأولى، نتأمل ذلك فيما يأتى:

- بينما بولغ فى إثبات معانى اللهو واللعب للحياة الأولى بأسلوب القصر (ما - إلا) بولغ فى المقابل فى إثبات معنى الحياة للدار الآخرة بـ «إن والام»، وتعريف طرفى جملة الخبر (لهى الحيوان).
- بينما وردت صيغة الحياة مقيدة بالوصف (الدنيا)، وردت صيغة الحيوان مطلقة بلا وصف، وذلك للإشعار بأن الحياة الأخروية فى تساميها أبعد من أن يحيط بها وصف.
- بينما وقعت صيغة الحياة مبتدأ أخبر عنه باللهو واللعب، وقعت صيغة الحيوان فى جملة الإخبار عن الدار الآخرة، فكأن هذه الدار ليست مجرد وعاء أو مسرح للحياة الأخروية، بل إنها ذاتها حياة.

السنة - العام

في قوله تعالى في سورة العنكبوت: ﴿**ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون**﴾[1]، جاء تمييز المستثنى بلفظ «العام» لا بلفظ «السنة» الوارد في تمييز المستثنى منه، وكل من اللفظين يدل على معنى الحول، فما سر المخالفة بينهما في الآية الكريمة؟

ذكر بعض المفسرين[2] أن السر هو تحاشي تكرار لفظ (السنة)، لأن تكرير اللفظ الواحد في الكلام الواحد حقيق بالاجتناب في البلاغة إلا لغرض ينتحيه المتكلم من تفخيم أو تهويل أو تنويه أو نحو ذلك.

وهذا الرأي لا يكفي، إذ لو كان الغرض تجنب تكرار لفظ (السنة) لقيل «فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين»، بحذف تمييز المستثنى استغناء بذكره في المستثنى منه[3].

والحق أن العدول عن لفظة (السنة)، إلى لفظة (العام) في تلك الآية، أو إيثار إحداهما دون الأخرى في غيرها من الآيات مرده إلى خصوصية كل منهما في الدلالة على معنى الحول، حيث تختص (السنة) -كما تقول المعاجم[4]- بالحول الذي يكون فيه الجدب أو الشدة، ويختص (العام) بما فيه الخصب والرخاء، ولهذا أوثرت لفظة (السنة) في قوله ﷺ: «اللهم أعني على مضر بالسنة»، وقوله في حديث الدعاء على قريش: «اللهم أعني عليهم بسنين كسني يوسف».

وأوثرت لفظة (العام) في قوله سبحانه: ﴿**ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون**﴾[5].

ولعل مما يدعم هذه التفرقة بين الفظتين كذلك إيثار لفظ (العام) في بيان مدة الفصال حيث براءة الطفولة والبعد عن معاناة الحياة في قوله سبحانه:

---

(١) سورة العنكبوت: ١٤.

(٢) انظر: الكشاف للزمخشري ٣/ ١٨٦. وتفسير أبو السعود ٧/ ٣٣. والبحر المحيط لأبي حيان ٧/ ١٤٥، ط٢ دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٣. وتفسير البيضاوي ٤/ ١٢٦.

(٣) انظر: بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٣/ ٢٦٩.

(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور. والقاموس المحيط للفيروزآبادي. والمفردات للراغب الأصفهاني ٣٤٥، ٣٥٤.

(٥) سورة يوسف: ٤٩.

﴿حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين﴾[1].

وإيثار لفظ «سنين» فى إخباره سبحانه عن عقاب آل فرعون: ﴿ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات﴾[2]. وفى قوله عزوجل على لسان يوسف عليه السلام فى بيان مدة الكدح والمجاهدة فى الزرع: ﴿قال تزرعون سبع سنين دأبا﴾[3]، ثم إيثار لفظة (سنة) فى ذكر مقدار يوم القيامة، حيث الإحساس بشدة هذا اليوم وضراوة وطأته على النفوس فى مثل قوله سبحانه: ﴿وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون﴾[4].

فى ضوء هذه التفرقة بين السنة والعام، تكون نكتة المخالفة بينهما فى الآية الكريمة هى الإيحاء بأن نوحاً عليه السلام قد قاسى ما قاسى من قومه فى تلك الحقبة الطويلة التى استغرقتها دعوته إياهم، والتى بلغت تسعمائة وخمسين سنة، أما المدة المستثناه فهى التى جاءه فى صدرها الغوث والفرج بإهلاكهم غرقاً ونجاته ومن معه من المؤمنين[5].

وفى ذلك إبراز للبون الشاسع بين مدة ابتلاء نوح عليه السلام بقومه، ومدة رخائه بعد هلاكهم، وهو بذلك يؤدى دوره فى تسليه نبينا ﷺ وتثبيت قلبه فى مواجهة ما كان يلقاه من عنت الكفار والمشركين[6].

وهناك فرق آخر وهو أن (السنة) تستعمل أكثر ما تستعمل فى السنة الشمسية، بينما يستعمل (العام) للقمرية، ونحن نعلم أن بينهما أحد عشر يوماً تقريباً.

ومن هنا فلا عجب أن تدهشنا روعة التعبير القرآنى فى اختيار الكلمات، حيث ذكرت «السنة» فيما قضاه نوح عليه السلام، وذكرت كلمة «العام» بجانب المدة التى استثنيت من ذلك، وفى هذا تصوير لما عاناه عليه الصلاة والسلام من شدة فى الأمر، ومقارعة لأعداء الله، وطول أمد، وإذا تدبرنا كتاب الله تعالى فإننا لن نجد أى كلمة منه تشبه غيرها، فضلاً عن أن تسد مسدها[7].

---

(١) سورة لقمان: ١٤. (٢) سورة الأعراف: ١٣٠.
(٣) سورة يوسف: ٤٧. (٤) سورة الحج: ٤٧.
(٥) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٣/ ٣٨٦. وروح المعاني للألوسي ٢٠/ ١٤٣.
(٦) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، ص١٥٩، ١٦٠. ط دار الفكر، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. القاهرة.
(٧) انظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل عباس، وسناء فضل عباس، ص١٧٩، ط. دار الفرقان، الأردن.

الخشية- الخوف

لا يكاد كثير من الناس يفرق بين الخشية والخوف، مع أن بينهما أكثر من فرق، منها:

- الخشية أعلى مرتبة من الخوف، وهى أشد الخرف، فإنها مأخوذة من قول العرب: شجرة خشية إذا كانت يابسة، وذلك فوات بالكلية، فهى ميتة.

والخوف مأخوذ من قولهم: ناقة خوفاء، إذا كانت مريضة بها داء، وهذا نقص وضعف وليس بفوات. ولذا خصت الخشية بالله فى كثير من الآيات: **﴿ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب﴾**[1].

- الخشية خوف مشوب بتعظيم المخشى، صادر عن علم ويقين صادق ومعرفة بعظمته حتى وإن كان الخاشى قوياً[2]، ولذلك خص العلماء بالخشية فى قوله تعالى: **﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[3]. وفى الحديث قوله ﷺ: «فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[4].

وخشية الله منزلة رفيعة يختص بإدراكها فئة معينة من الناس، هم العلماء وأولوا العقول والألباب من المؤمنين والمتبعين للذكر، ومن الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه[5].

والخوف يكون غالباً من ضعف الخائف وإن كان المخوف أمراً يسيراً وشيئاً هيناً، كما قد يكون عن تسلط بالقهر والإرهاب، قال تعالى: **﴿يا موسى لا تخف إنى لا يخاف لدى المرسلون﴾**[6].

قيل: أى لا يكن عندك من ضعف نفسك ما تخاف منه من فرعون[7]،

---

(١) سورة الرعد: ٢١.

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن للزركشي ٤/ ٧٨. ومفردات الراغب ص٢١٣. والبرهان من الكاشف للزملكاني ص٩١، والكليات لأبي البقاء ص٣١٧.

(٤) سيورة فاطر: ٢٨.

(٤) انظر صحيح مسلم بشرح النووي ١٥. ١٠٦. وأخرجه أحمد في مسنده ٦/ ٤٥، ١٨١.

(٥) انظر: الفروق اللغوية لشايع ٢٦٧.

(٦) سورة النمل: ١٠.

(٧) انظر: البرهان للزركشي ٤/ ٧٨. والإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. بنت الشاطئ ص٢٠٩، ط دار المعارف بمصر.

وضد الخوف الأمن، قال تعالى: ﴿**وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً**﴾[1].

ويدل لذلك أن «الخاء والشين والياء» فى تقاليبها تدل على العظمة نحو «شيخ» للسيد الكبير، و«خيش» لما غلظ من الثياب. ولذا وردت الخشية غالباً فى حق الله تعالى: ﴿**وإن منها لما يهبط من خشية الله**﴾[2].

وهذا الوجه هو الذى اقتصر عليه الراغب الأصفهانى حيث قال: «الخشية خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه».

- الخشية هى الخوف فى محل الأمل، قال السيد رشيد رضا: «فإن كان بين الخوف والخشية فرق فالأقرب عندى أن تكون الخشية هى الخوف فى محل الأمل، ومن دقق النظر فى الآيات الآيات التى ورد فيها حرف الخشية يجد هذا المعنى فيها.

ولعل أصل الخشية مادة خشت النخلة تخشو، إذا جاء ثمرها دقلاً (رديئاً) وهى مما يرجى منها الجيد.

وقول ربنا سبحانه وتعالى: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾، يشهد لما قاله صاحب المنار، ومن أحق من العلماء بهذا الخوف وبذلك الأمل، ولا يتنافى مع ما قاله الراغب من أن الخشية خوف يشوبه التعظيم، والعلماء حقيقون بهذا التعظيم حريصون عليه.

كذلك قوله سبحانه: ﴿**فلا تشخوهم واخشونى**﴾[3]. وقوله عزوجل: ﴿**أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**﴾[4].

- ومما يدل على الفرق بين لفظتى «الخشية» و «الخوف» أنهما جاءا متعاطفين، والأصل أن العطف يقتضى المغايرة قال تعالى: ﴿**والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب**﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿**فاضرب لهم طريقاً فى البحر يبساً لا تخاف دركاً ولا تخشى**﴾[6]. وقال عزوجل: ﴿**وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم**﴾[7].

---

(١) سورة التور: ٥٥.
(٢) سورة البقرة: ٧٤.
(٣) سورة البقرة: ١٥٠.
(٤) سورة التوبة: ١٣.
(٥) سورة الرعد: ٢١.
(٦) سورة طه: ٧٧.
(٧) سورة النساء: ٩.

ومما يلاحظ في البيان القرآني المعجز النهي عن الخوف والحزن معاً، والنفي لهما جميعاً في سبعة عشر موضعاً من القرآن الكريم منها قوله سبحانه: ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا**﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿**فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين**﴾[2] - وهو ما لم يرد ذكره مع الخشية - مما يوحي باختلاف الخشية عن الخوف وقيام فروق دقيقة بينهما، يشير إليها الاستعمال القرآني الكريم لهما، فكأن الخوف قرين الحزن، وأن مشاعرهما تختلط في أغلب الأحيان، فكأنك لم تخف إلا حين رأيت بوادر ما تكره وقوعه، وتخاف ضرره وتحزنك آثاره، فكأن الخوف لا يدفع الضرر[3]. وكما يقول أبو البقاء: «فالخوف علته المتوقع، والحزن علته الواقع»[4].

أما إذا خشيت فإنك غالباً تتقي مصير ما تخشى: ﴿**ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون**﴾[5].

---

(١) سورة فصلت: ٣٠. (٢) سورة القصص: ٧.

(٣) انظر: الفروق اللغوية وأثرها في تفسير القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن الشايع، ص٢٦٧- ٢٧٠.

(٤) انظر: الكليات لأبي البقاء الحسني، ص٣١٧، مطبعة العامرة، ١٢٧٨هـ.

(٥) سورة النور: ٥٢.

القعود- الجلوس

من أسرار العربية أن «القاف والعين والدال» تدل على اللبث والثبات، فمنها لفظة (قعد) التى تستعمل لما فيه لبث وطول مكث. ومنها (العقد) الذى يستعمل لعقدة النكاح، و(العقيدة) وهى قضايا ثابتة. ومن هذا المفهوم جاءت تسمية المرأة الكبيرة فى السن التى قعدت عن الحيض والتزوج (قاعد) وجمعها (قواعد) و لأنها غالباً تكون قعيدة البيت لا تبرحه ولا تتحول عنه، قال تعالى: ﴿**والقواعد من النساء اللاتى لا يرجون نكاحا**﴾[1].

وفى معنى اللبث والبقاء يقول تعالى: ﴿**فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**﴾[2].

أما «الجيم واللام والسين» فعلى العكس من ذلك، ففيها الحركة، ومنه «السجل» للشئ المتحرك الذى لا يبقى عند صاحبه. ومن هنا يقال: جليس الملك، ولا يقال: قعيده، إذ إن من حسن أدب الجليس عدم المكث الطويل مراعاة وتقديراً لمختلف الأحوال، بينما الجلوس يدل على سرعة التحول والتغير، قال تعالى: ﴿**وإذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم**﴾[3] فلفظة «المجالس» هنا أنسب وأدق من لفظة «المقاعد»[4].

والمتأمل لآى القرآن الكريم واستعمال هاتين الكلمتين يدرك روعة العربية من جهة وإعجاز الكتاب الخالد من جهة ثانية، فالقعود إنما يستعمل لما فيه لبث وطول مكث أما الجلوس فيستعمل فيما ليس كذلك، ولهذا يقال: قواعد البيت، ولا يقال: جوالسه. قال تعالى: ﴿**وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل**﴾[5].

أما فى قوله تعالى عن مصير المتقين فى الآخرة ﴿**إن المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾[6]، فهو يدل على إكرام الله للمتقين، فطول الجلوس والإقامة فى هذا المقام من أكبر النعم للمؤمنين، ولهذا كانت لفظة (مقعد) فى الآية أصدق وأدق وأبلغ من «مجلس».

---

(١) سورة النور: ٦٠.
(٢) سورة المائدة: ٢٤.
(٣) سورة المجادلة: ١١.
(٤) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢٨٨.
(٤) سورة البقرة: ٢٧.
(٥) سورة القمر: ٥٤- ٥٥.

وملحظ اختصاص القعود باللبث وطول المكث دون الجلوس ليس من باب المبالغة أو المغالاة والشطط، بل إنه ليجعلنا نتفهم بلاغة القرآن الكريم فى قوله تعالى: **﴿إذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد﴾**[1].

فمنها نفهم أن الملكين ملازمان للإنسان ملازمة دائمة، يراقبانه ويكتبان عنه كل ما يتلفظ به، وأنهما ليسا جليسين يلمان بالإنسان على عجل، ثم يدعانه وشأنه، إضافة إلى ما فى لفظة ﴿قعيد﴾ من معنى الترصد والترقب، وبهذه الملازمة والحرص يكون إحصاء ما على الإنسان وما له فى غاية الكمال والشمول.

- فرق آخر أن فى «قعد» معنى ليس فى «جلس» ألا ترى أنا نقول: قام ثم قعد، وأخذه المقيم والمقعد، وقعدت المرأة عن الحيض، ثم تقول: كان مضجعاً فجلس، فيكون القعود عن قيام، والجلوس عن حالة هى دون الجلوس. لأن الجلس المرتفع، والجلوس ارتفاع عما هو دونه[2].
- فأصل الجلس: الارتفاع فى الشئ[3]، وجلس فى أصلها أن يقصد بمقعده جلساً من الأرض، جاء فى المصباح المنير: «الجلوس غير القعود، فإن الجلوس هو الانتقال من سفل إلى علو، والقعود هو الانتقال من علو إلى سفل، فعلى الأول يقال لمن هو نائم أو ساجد: اجلس، وعلى الثانى: يقال لمن هو قائم: اقعد»[4].

يؤيد هذا المفهوم ما جاء فى حديث النبى ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر (ثلاثاً) ؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ثم جلس وكان متكئاً فقال: ألا وقول الزور، فمازال يكررها حتى قلنا: ليته

---

(١) سورة ق: ١٧- ١٨.

(٢) انظر: الصاحبي لابن فارس، ص٩٦، تحقيق مصطفي الشويمي، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦٤م. والمزهر في علوم اللغة وأنواعها للسيوطي، ١/ ٤٠٤، شرح جاد المولي وآخرين، ط٤، عيسي الحلبي، مصر.

(٣) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، ١/ ٤٧٣، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، دار إحياء الكتب العربي، عيسي الحلبي، القاهرة ١٣٦٦هـ.

(٤) انظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للفيومي، ١/ ١٢٨، المطبعة الأميرية، دا الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٨هـ. وانظر : الكليات لأبي البقاء، ص٥٢٦.

سكت»[1].

يقول ابن فارس فى معجم مقاييس اللغة: «يقال: جلس الرجل جلوساً، وذلك يكون عن نوم واضطجاع، وإذا كان قائماً كانت الحال التى تخالفها القعود، يقال: قام وقعد»[2].

وبهذا تتضح دقة الراغب الأصفهانى فى تعريفه للقعود بالمقابلة، حيث يقول: «القعود يقابل به القيام»[3]، وقد جاء تقابلهما فى القرآن الكريم فى أكثر من آية، قال تعالى: ﴿فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم﴾[4]، وقال سبحانه: ﴿والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾[5]، وقال عزوجل: ﴿وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً﴾[6].

وحديث نافع عن عبد الله قال: «كان النبى ﷺ يخطب خطبتين يقعد بينهما»[7]. ويمكن أن نفهم أن الخطبة فى حال القيام من قوله (يقعد بينهما)، إذ القعود لا يكون إلا عن قيام، وهذه إحدى فوائد الفروق بين الألفاظ، وتحرى الدقة فى تحديد معانيها.

---

(١) أخرجه البخاري، فتح الباري، ٥/ ٥٦١.
(٢) انظر: معجم مقاييس اللغة، ١/ ٤٧٣.
(٣) انظر: مفردات الراغب، ص٦١٧.
(٤) سورة النساء: ١٠٣.
(٥) سورة آل عمران: ١٩١.
(٦) سورة يونس: ١٢.
(٧) أخرجه البخاري، فتح الباري، ٢/ ٤٠٦.

البحر - اليم

في قول الله تبارك وتعالى في سورة طه: **﴿ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً لا تخاف درکاً ولا تخشى. فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم﴾**[1].

عدول عن لفظة «البحر» إلى لفظة «اليم»، ومعلوم أن المراد بالبحر في الآية الأولى هو بعينه المراد باليم في الثانية، فما هو -إذن- وجه المخالفة بينهما في هذا السياق؟

تقول معاجم اللغة في مادة (ب، ح، ر): أصل البحر كل مكان واسع جامع للماء الكثير، والعرب تسمي كل نهر واسع بحراً، وسموا كل متوسع في شئ بحراً، فقالوا: فرس بحر باعتبار سعة جريه، وقال عليه الصلاة والسلام في فرس ركبه: وجدته بحراً. وللمتوسع في علمه بحراً، والتبحر في العلم التوسع، وبملحظ من هذه السعة قيل: بحرت كذا أي أوسعته سعة البحر تشبيهاً به، والبحر عند العرب -أيضا- الشق، ومنه بحرت البعير، أي شققت أذنه شقاً واسعاً.

وتقول في مادة (ى -م -م): اليم البحر، وزاد اللبث: الذي لا يدرك قعره ولا شطاه وقيل: اليم هو لجة البحر، ويممه: قصده، وتيممته برمحي: قصدته، واليمامة: القصد، ويم (بالضم) فهو ميموم: طرح في البحر، ويم الساحل يماً إذا غلبه البحر وغطاه فطما عليه[2].

وفي ضوء ذلك نستطيع القول بأن لفظتي البحر واليم وإن دلتا على معنى واحد فإن لكل منهما مساربها الدلالية أو دائرتها الإيحائية الخاصة التي تتمايز بها من الأخرى، فبينما ترد الأولى بملحظ من معنى السعة أو الشق، ترد الثانية بملحظ من الدلالة على الطرح أو القصد أو القهر.

ومن ثم -والله أعلم بمراده- كان إيثار الأولى مع نعمة الإنجاء، ثم

---

(١) سورة طه: ٧٧- ٧٨.

(٢) انظر في المادتين: لسان العرب والقاموس المحيط وتاج العروس ٣/ ٢٧، والمفردات ٣٧.

العدول عنها إلى الثانية مع نقمة الإغراق، إذ بهذا وذاك تبرز ملامح المعجزة التى تحققت لموسى عليه السلام فى هذا الموقف، أعنى معجزة المفارقة بين مصيرين متناقضين فى مكان مائى واحد، ينفسح لفريق وينشق لهم طريقاً مطمئناً يدرجون عليه آمنين، وينغلق على فريق آخر فيتعمدهم دون الأولين بالهلع، ويطرحهم فى لجته الهائجة جثثاً هامدة.

ولعل مما يجلى هذا التمايز بين اللفظتين أن نشير إلى أن لفظة «البحر» قد وردت فى ثلاثة وثلاثين موطناً من القرآن الكريم، وبتأمل سياقاتها فى تلك المواطن نجد أنها تدور- فى الأغلب الأعم- حول تذكير الإنسان بما أسبغه المولى سبحانه عليه من نعم.

من ذلك قوله تعالى: ﴿**ألم تر أن الفلك تجرى فى البحر بنعمة الله**﴾(١). وقوله سبحانه: ﴿**أحل لكم صيد البحر وطعامه متاعاً لكم وللسيارة**﴾(٢)، وقوله عزوجل: ﴿**هو الذى يسيركم فى البر والبحر**﴾(٣)، وقوله سبحانه: ﴿**وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم**﴾(٤).

أما لفظة «اليم»، فقد وردت ثمانى مرات فى القرآن الكريم، كلها فى سياق قصة موسى عليه السلام، كان اليم فى خمس منها أداة نقمة ووسيلة هلاك، كما هو فى الآية التى نحن بصددها، وأيضا قوله سبحانه فى آل فرعون: ﴿**فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم**﴾(٥)، وقوله تعالى عن فرعون: ﴿**فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليم**﴾(٦). وقول سبحانه فى خطاب السامرى: ﴿**وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا**﴾(٧). أما الثلاث الأخرى فقد وردت فى خطاب أم موسى عليه السلام فى موطنين هما قوله تبارك وتعالى: ﴿**أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل**﴾(٨). وقوله سبحانه: ﴿.. **فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم**

---

(١) سورة لقمان: ٣١.
(٢) سورة المائدة: ٩٦.
(٣) سورة يونس: ٢٢.
(٤) سورة البقرة: ٥٠.
(٥) سورة الأعراف: ١٣٦.
(٦) سورة القصص: ٤٠، والذاريات: ٤٠.
(٧) سورة طه: ٩٧.
(٨) سورة طه: ٣٩.

ولا تخافى ولا تحزنى﴾[1].

فالشأن فيما ذكر بلفظ «اليم» أن يكون وسيلة إهلاك، ومن ثم فإن فى إيثار هذا اللفظ فى الآيتين إبرازاً لوجه المعجزة التى اختص الله بها نبيه موسى عليه السلام، حيث شاءت إرادته عزوجل أن يغدو اليم المهلك فى العادة له عليه السلام خاصة وسيلة نجاة، كما شاءت أن تكون النار التى من شأنها الإحراق برداً وسلاماً على إبراهيم عليه السلام.

بقى أن نشير إلى أن كلاً من لفظتى البحر واليم فى القرآن الكريم قد تواردت- معجمياً- مع قائمة من الألفاظ التى لم تتوارد معها الأخرى، فبينما تواردت البحر مع ألفاظ من مواد: (الإنجاء، الصيد، التكريم، المتاع، الاهتداء، التسخير، النعمة) تواردت اليم مع ألفاظ من مواد: (الانتقام، القذف، الإقاء، النسف، النبذ)، وفى هذا التمايز الجلى بين القائمتين ما يدعم القول بأن هاتين اللفظتين وإن دلتا على معنى واحد فإن لكل منهما ظلالها الإيحائية الخاصة التى جعلتها أكثر من الأخرى ملاءمة لموقعها من سياق الآية الكريمة[2].

(١) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، ص١٦٦، ١٦٧.

(٢) سورة القصص: ٧.

النصيب - الكِفل

قال تعالى فى سورة النساء: ﴿**من يشفع شفاعة حسنة يكن له نصيب منها ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها وكان الله على كل شئ مقيتاً**﴾[1].

الآية الكريمة-كما ترى- قد آثرت لفظة «النصيب» مع الشفاعة الحسنة، ثم عدلت عنها إلى لفظة «الكفل» مع الشفاعة السيئة، مع أن الكفل -معجمياً[2]- هو النصيب، فما السر فى ذلك؟

بداية نود أن نشير إلى أن هذا العدول ليس لمجرد التفنن-كما ذكر بعض المفسرين- وإنما هو لأن لفظة «الكفل» لها من الظلال الدلالية والإيحاءات السياقية الخاصة ما تفترق بها عن لفظة «النصيب»، وما تجعلها أكثر منها مواءمة للدلالة على مردود الشفاعة السيئة.

- فالكفل -كما ذكر الفخر الرازى[3]- اسم للنصيب الذى يكون عليه اعتماد الناس، وإنما يقال: كفل البعير، لأنك حميت ظهر البعير عن الآفة، وحمى الراكب بدنه بذلك الكساء عن ارتماس ظهر البعير فيتأذى به.. فإذا ثبت هذا فنقول: قوله: ﴿**ومن يشفع شفاعة سيئة يكن له كفل منها**﴾، أى يحصل له منها نصيب يكون ذلك النصيب ذخيرة له فى معاشه ومعاده، والمقصود حصول ضد ذلك.. والغرض منه التنبيه على أن الشفاعة المؤدية إلى سقوط الحق وقوة الباطل تكون عظيمة العقاب عند الله تعالى.

وفى بيان المراد بكل من الشفاعتين ذكر المفسرون أن الحسنة منهما هى ما يراعى بها حق المسلم فيجلب بها إليه نفع، أو يدفع عنه ضر ابتغاء لوجه الله تعالى، وأن السيئة ما كانت بخلاف ذلك[4].

- والكفل-كما ذكر الراغب- مشتق من الكَفَل (بمعنى عجز الدابة) الذى

---

(١) سورة النساء: ٨٥.

(٢) انظر: لسان العرب لابن منظور، والقاموس المحيط للفيرزآبادي.

(٣) انظر: التفسير الكبير للرازي، ١/ ٢١٢.

(٤) انظر: الكشاف ١/٢٨٦. وتفسير البيضاوي ٢/ ١٤، وتفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) ٥/ ٢٩٥، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٧م. وتفسير أبو السعود ٢/٢١.

أصبح لكونه مركباً ينبو براكبه متعارفاً في كل شدة كالسيساء، وهو العظم الناتئ من ظهر الحمار، يقال: لأحملنك على الكفل وعلى السيساء، وبملحظ من هذا الأصل الاشتقاقي يقول الراغب في بيان وجه العدول عن النصيب إلى الكفل في الآية:

إن المعنى هو: من ينضم إلى غيره معيناً له في فعلة حسنة يكون له منها نصيب، ومن ينضم إلى غيره معيناً له في فعلة سيئة يناله منها شدة[1].

ولفظة «الكفل» كما تدل -معجمياً- على معنى «النصيب» تدل كذلك على معان أخرى تنعكس ظلالها -ضرورة- على دلالتها في الآية الكريمة، وتوحي ببعض أسرار العدول إليها:

- فمن معاني الكفل: المثل المساوي: وبملحظ من هذا المعنى ذكر بعض المفسرين أن في العدول إليها في الآية إشعاراً بالمماثلة بين الفعل ورد الفعل في الشفاعة السيئة، فاختيار النصيب أولاً لأن جزاء الحسنة يضاعف، والكفل ثانياً أن من جاء بالسيئة لا يجزى إلا مثلها، ففي الآية إشارة لطيفة إلى لطف الله بعباده[2].
- ومن تلك المعاني -أيضاً- الكفيل أو الضامن، وفي ضوء هذا المعنى رتب غير واحد من المفسرين القول بأن في العدول إلى تلك اللفظة مع الشفاعة السيئة دلالة على حتمية عود المردود السيئ على صاحب تلك الشفاعة، وإشعاراً بأنه إذ يقدم على إقحام نفسه في تلك الشفاعة يتكفل بجرائرها.

بهذه الظلال والإيحاءات -إذن- كان للفظة «الكفل» مجالها الدلالي الخاص الذي تتمايز به من لفظة «النصيب»، وتتواءم دونها بمقتضاه مع الشفاعة السيئة، وهذا التمايز هو ما أومأ إليه أبو حيان عند تفسيره للمغايرة بين اللفظتين في الآية الكريمة، وذلك حين قال:

«إن الكفل أكثر ما يستعمل في الشر، وهو ما يتجلى بوضوح في المواطن القرآنية التي وردت فيها لفظة النصيب، إذ أنها لم ترد في الأعم الأغلب من هذه المواطن إلا مقترنة بالخير أو بما يرجى منه خير[4].

---

(١) انظر: المفردات ٤٣٦. وبصائر ذوي التمييز ٤/ ٣٦٧.
(٢) انظر: روح المعاني للألوسي ٥/ ٩٨. (٣) انظر: البحر المحيط ٣/ ٣٠٩.
(٤) انظر: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، ص١٦٤، ١٦٥.

الحلف - القسم

لم يفرق الناس قديماً وحديثاً بين الحلف والقسم في كلامهم، فقد استخدم الأدباء كلمتي «حلف وأقسم» وفق ما يسبق إلى ألسنتهم أو يوافق أوزانهم.

هذا زهير بن أبي سلمى يقول:

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجُرهم

وهذا النابغة الذبياني يقول في موقف الاعتذار للملك، وهو موقف يحرص المرء أن يبدو فيه صادقاً كل الصدق:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب(١)

وقد فرق أبو هلال بين الحلف والقسم فقال: القسم أبلغ من الحلف، لأن معنى قولنا: أقسم بالله أنه صار ذا قسم بالله، والقسم النصيب، والمراد أن الذي أقسم عليه من المال وغيره قد أحرزه ودفع عنه الخصم بالله.

والحلف من قولك سيف حليف، أي قاطع ماض، فإذا قلت: حلف بالله فكأنك قلت: قطع المخاصمة بالله.

فالأول أبلغ، لأنه يتضمن الآخر مع دفع الخصم، ففيه معنيان، وقولنا «حلف» يفيد معنى واحداً، وهو قطع المخاصمة فقط(٢).

وقد استقرأت الدكتورة بنت الشاطئ(٣) - رحمها الله - مواضع لفظ «الحلف» في القرآن الكريم فوجدت أنه يقوم مقام الحنث باليمين، فحيثما استخدم الحلف دل على الحنث والكذب وعدم الوفاء باليمين، كقوله تعالى: **﴿وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾**(٤) وقوله سبحانه: **﴿يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم﴾**(٥). وقوله سبحانه: **﴿وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون﴾**(٦). وقوله تعالى: **﴿ويحلفون على الكذب وهم**

---

(١) انظر: ديوان النابغة الذبياني، تحقيق الطاهر بن عاشور، ص٥٥.

(٢) انظر: الفروق في اللغة، ص٤٧.

(٣) انظر: الترادف في القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، ص١٧٤.

(٤) سورة التوبة: ٤٢. (٥) سورة التوبة: ٧٤.

(٦) سورة التوبة: ١٠٧.

يعلمون﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم﴾[2]، فكأنه قال: إذا حنثتم بأيمانكم.

وبهذا يكون للحلف خصوصية ينفرد بها، وهى اشتماله على الحنث باليمين، فلا يقال إلا إذا أريد الكذب وأضمر عدم الوفاء بمقتضى اليمين.

وربما تكون دلالة هذا الفعل واضحة أشد ما يكون الوضوح فى قوله عزوجل: ﴿ولا تطع كل حلاف مهين﴾[3].

أما القسم فتفسره المعاجم بالحلف دون أن تذكر فرقاً بينهما، وحين نعيد النظر فى القاموس نجده يقول: «والقسم: العطاء والرأى.. وأن يقع فى قلبك الشئ فتظنه، ثم يقوى ذلك الظن فيصير حقيقة»[4]، فكأن القسم فى بعض اشتقاقاته اللغوية أقوى فى الظن وأقرب إلى الحق، وأبعد عن الاحتمال والشك، كما هى الحال فى الحلف.

فالقسم -إذن- يكون على الشئ الواضح والحق البين، والأيمان الصادقة، ولهذا جاء القسم فى القرآن فى الأيمان الصادقة، وجاء موصوفاً بالعظمة فى قوله تعالى: ﴿وإنه لقسم لو تعلمون عظيم﴾[5].

وقد كان أصحاب الجنة صادقين فى قسمهم، وجادين فى تنفيذ نيتهم فى صرم جنتهم ﴿إذ أقسموا ليصرمنها مصبحين ولا يستثنون﴾[6]. فهم لا يعيشون تردداً ولا تخيراً.

إنها دون ريب صورة صادقة تبين النفسيات المريضة التى تتعاهد بكل حرص وتصميم على أن يقطفوا ثمار جنتهم فى الصباح الباكر قبل أن يداهمهم الفقراء والمساكين.

واستقراء البيان القرآنى فى استعمال القسم يدلنا على أنه يعتبر بحال المقسم عند عقد اليمين، فيخص القسم بمن كان صادقاً عند عقده لليمين حتى ولو خالف ذلك الخق، وجانب الصدق فى واقع الأمر، وإنما كان ذلك

---

(١) سورة المجادلة: ١٤. (٢) سورة المائدة: ٨٩.

(٣) سورة القلم: ١٠.

(٤) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي ٤/ ١٦٤، دار الفكر، لبنان.

(٥) سورة الواقعة: ٧٦. (٦) سورة القلم: ١٧.

هو اعتقاده الجازم، ونظرته المخلصة الصادقة فى نظر نفسه، أو على الأقل إيهام المقسم له بذلك.

ومن هنا يمكن أن نفهم إشارة القرآن الكريم المتكررة إلى الجهد المبذول عند عقد اليمين من قبل بعض الكفار والمشركين، مما يوحى بصدقهم فى قسمهم، وإخلاصهم فى اعتقادهم وإن لم يكن لهم الحق، فقد ذكر الله سبحانه وتعالى إقسامهم بالله جهد أيمانهم فى أكثر من موضع منها:

قال تعالى: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم**﴾[1]. وقال سبحانه: ﴿**وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت**﴾[2].

فلعله لولا غاية اجتهادهم فى هذه الأيمان لما ارتقت من الحلف إلى القسم، لإيحاء اجتهادهم غاية الجهد بهذه الأيمان بصدقهم فيها، وإن تبين فيما بعد أن الأمر بخلاف ذلك.

وكما تقول بنت الشاطئ[3]: صنع القرآن يلفت إلى فرق دقيق بينهما، فإن لم نقل إن القسم لليمين الصادقة- حقيقة أو وهماً- والحلف لليمين الكاذبة على إطلاقها- فلا أقل من أين يكون بين دلالتهما الفرق بين العام والخاص، فيكون القسم لمطلق اليمين بعامة، ويختص الحلف بالحنث فى اليمين على ما اطرد استعماله فى البيان القرآنى، وهذا فرق كبير واضح[4].

---

(١) سورة المائدة: ٥٣.　　(٢) سورة النحل: ٣٨.

(٣) انظر: الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. بنت الشاطئ، ص٢٠٧.

(٤) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢٤٣.

إبليس - الشيطان

ورد ذكر «إبليس» فى إحدى عشرة آية من آيات القرآن الكريم، وورد ذكر «الشيطان» فى ثمان وستين آية، ويظن كثير من الناس للوهلة الأولى أنهما بمعنى واحد، وأنهما لمخلوق واحد، وليس الأمر كذلك، فكلمة «إبليس» علم على مخلوق خلقه الله عزوجل من النار وقام بعمله ما شاء الله أن يقوم، ثم نازع ربه الكبرياء والعظمة، فاستكبر عن طاعته وعصى ربه، فطرده من رحمته ومن وظيفته، فهبط إلى الأرض يتهدد ويتوعد بإغواء بنى آدم، وسيظل كذلك إلى أن تقوم الساعة، ويبعث الله عزوجل الخلق، ليقرأ كل منهم كتابه، ويعرف مسيره ومصيره.

وأما الشيطان فهو صفة قد يتصف بها إبليس، وقد يتصف بها غيره من الجن أو من الإنس، فكثير من الناس نراهم ويروننا، نعاملهم ويعاملوننا، هم فى ظاهرهم من الإنس، ولكنهم فى حقيقة تصرفاتهم وأفكارهم ومكائدهم وأخلاقهم يكونون من مردة الشياطين الذين قد يعجز عن مكائدهم وحبائلهم إبليس نفسه.

ويوضح ذلك أن كلمة «إبليس» -التى يرى بعضهم أنها يونانية الأصل- عربية الاشتقاق، فهى من أبلس الرجل إذا انقطع ولم تكن له حجة، وأبلس الرجل: قطع به، وأبلس -أيضا- سكت، وأبلس من رحمة الله: يئس منها وندم. وقد استخدم العرب هذه المعانى فى شعرهم ونثرهم، فقالوا ناقة مبلاس: إذا كانت لا ترغو من الخوف، وفلان أبلس: إذا سكت من شدة الخوف.

وقد استخدم القرآن الكريم هذه المعانى اللغوية لكلمة «أبلس» قال تعالى: **﴿ويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون﴾**[1].

وإذا قرآت الآيات التى ورد فيها ذكر «إبليس» تجد أن هذه هى صفاته، فهو مطرود من رحمة الله وهو يائس منها، وقد قطع به وأهبط إلى الأرض، وقامت عليه الحجة، قال تعالى: **﴿قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين. قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته**

---

(١) سورة الروم: ١٢.

من طين. قال فاخرج منها فإنك رجيم. وإن عليك لعنتى إلى يوم الدين﴾[1].

أما كلمة «شيطان» فهى -أيضاً- عربية الاشتقاق والدلالة، لم يخالف عن ذلك أحد، إنما اختلفوا فى أصل اشتقاقها، فبعضهم قال: إنها من الفعل «شطن» بمعنى بعد عن الحق، من شطنه، يشطنه، شطناً، إذا خالفه عن وجهته ونيته، وشطنت الدار: بعدت، وتشيطن الرجل: إذا صار كالشيطان وفعل فعله. قال النابغة:

نأت بسعاد عنك نوى شطون ... فبانت والفؤاد بها رهين

وعلى هذا تكون كلمة «شيطان» على وزن «فيعال» لأن النون فيه أصلية. وآخرون قالوا: إنها من الفعل «شاط» بمعنى أحترق من الغضب من شاط، يشيط، وتشيط إذا لفحته النار فأحترق أو هلك وعلى هذا تكون على وزن «فعلان» والنون فيه زائدة.

والاشتقاق الأول «شطن» أقرب إلى وصف أعمال الشيطان التى تهدف إلى إبعاد الناس عن عمل الخير وإتباع الحق.

الشيطان -إذن- صفة يمكن أن يتصف بها أى امرئ يعمل عمله، وقد وصف الله عزوجل بها إبليس حتى التصقت به، فصار الناس يظنون أنها خاصة به، ولكن آيات القرآن الكريم بينت أن إبليس غير الشيطان، وأن الشيطان صفة لإبليس.

تأمل قوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين. وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين. فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كان فيه..**﴾[2].

لعلك تلاحظ أن جملة ﴿**فأزلهما الشيطان عنها**﴾ توحى بصفات إبليس، أى أزلهما إبليس بكيده وتزيينه ووسوسته.

وهناك -أيضاً- شياطين من الإنس لا يقلون عن شياطين الجن خبثاً وكفراً وفساداً. قال تعالى: ﴿**وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً**﴾[3].

﴿**رب أعوذ بك من همزات الشياطين وأعوذ بك رب أن يحضرون**﴾[4].

---

(١) سورة ص: ٧٥- ٧٨.
(٢) سورة البقرة: ٣٤- ٣٦.
(٣) سورة الأنعام: ١١٢.
(٤) انظر: شواهد في الإعجاز القرآني، د. أبو عودة، ص٢٢٧.

الشَح - البخل

يرى الراغب الأصفهانى أن الشح: بخل مع حرص، وذلك فيما كان عادة[1].

وأن البخل: إمساك المقتنيات عما لا يحق حبسها عنه، ويقابله الجود... وهو ضربان: بخل بمقتنيات نفسه، وبخل بمقتنيات غيره، وهو أكثرهما ذماً[2]، واستدل لهذا بقوله تعالى: ﴿**الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل**﴾[3].

وقيل: إن البخل هو نفس المنع، والشح هو الحالة النفسية التى تقتضى ذلك المنع. ويرى النيسابورى: أن الشح هو المنع الذاتى الذى تقتضيه الحالة النفسية، ولهذا أضيف إلى النفس. والبخل: المنع مطلقاً من غير اعتبار صيرورته غريزة وملكه[4].

ومن الفرق بين اللفظتين: أن الشح أعم، فهو يكون بالمال وغيره، ولذلك يقال: هو شحيح بمودتك، أى حريص على دوامها وبقائها وضنين بها، ولا يقال فى ذلك: هو بخيل بمودتك، فالبخل فى المال خاصة.

وحين نلتمس بيان ذلك فى القرآن الكريم نجد ما يلفت النظر ويستوقف الفكر من العلاقة البينة بين الشح والنفس الإنسانية، بما يدل على أن الشح جبلة وطبيعة فى النفس، حاضر لها لا غيب عنها، فهو غريزة فيها، حتى قيل: الشح فى نفس الإنسان ليس بمذموم، لأنه طبيعة خلقها الله فى النفس كالشهوة والحرص، وذلك من باب الابتلاء والأختبار، إنما المذموم أن يستولى سلطانه على القلب فيطاع[5]، فعلى الإنسان مجاهدة نفسه لئلا تغلبه هذه الخصلة فتحمله على ما لا يحمد فعله.

ولعل دليل ذلك البين: إضافة الشح إلى النفس فى ثلاث آيات من القرآن الكريم من بين خمس آيات جاء بها ذكر الشح، أشحة، قال تعالى: ﴿**والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح**﴾[6]. وقال سبحانه: ﴿**ولا يجدون فى**

---

(١) انظر: المفردات ص٣٧٥. (٢) السابق، ص٤٩.

(٣) سورة الحديد: ٢٤، والنساء: ٣٧.

(٤) انظر: تفسير النيسابوري، طبع بهامش الطبري، ج٢٨، ص٤٢.

(٥) انظر: فروق اللغات نور لجزائري، ص٥٣، تحقيق أسد الله، مطبعة النجف، ١٣٨٠هـ. ومعترك الأقران للسيوطي ٣/ ٣٢٥.

(٦) سورة النساء: ١٢٨.

صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾[1]. وقال عزوجل: **﴿فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**[2].

ومن صريح الأدلة وأوضحها على الفرق البين بين الشح والبخل وأثر ذلك فى النفس، وأن البخل إنما هو أحد ثمار الشح المرة، لأن الشح يأمر بالبخل- ما جاء فى حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الظلم ظلمات يوم القيامة..» إلى أن قال: «وإياكم والشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقطيعة فقطعوا، وأمرهم بالبخل فبخلوا، وأمرهم بالفجور ففجروا»[3].

فالشح -إذن- ليس هو البخل، وإنما البخل ثمرته، بل أحد ثماره، وإن من فلاح الإنسان وصلاحه، ومن فضل الله عليه أن يوق شح نفسه **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**، إذ هو حالة نفسية تنتاب الإنسان وتحز فى نفسه حين إرادة الإنفاق فضلاً عن الإيثار.

يمتن الله على من يقيه شح نفسه من أن تغلبه فتمنعه من البذل والعطاء، أو تحمله على الاستزادة بالظلم والاعتداء، فالشح مرض نفسى.

أما البخل فلم يضف إلى النفس ولم ينسب إليها، فكأنه صفة مذمومة من الممكن الاحتراز منه بسهولة أكبر[4].

وفى القرآن الكريم بيان عن حال الذين يبخلون ولا يكتفون بأن يبخلوا عن أنفسهم، فيأمروا غيرهم بالبخل، قال تعالى: **﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضله﴾**[5].

ولا يخفى أن الشح والبخل خصلتان مذمومتان تعوذ منهما رسول الله ﷺ فى أكثر من حديث، فعن عمر بن ميمون قال: حدثنى أصحاب محمد ﷺ بأن رسول الله ﷺ كان يتعوذ من الشح والجبن وفتنة الصدر وعذاب القبر[6]، اللهم قنا الشح وجنبا البخل.

---

(١) سورة الحشر: ٩. (٢) سورة التغابن: ١٦.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٢/ ١٦٠، ١٩٥.

(٤) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢٥٥.

(٥) سورة النساء: ٣٧. (٦) أخرجه النسائي، ٨/ ٢٦٧.

أتي - جاء

لعل ملتمساً للفرق بين اللفظين يجده فى الجانب الموسيقى فى نطق اللفظين، ومواقع استخدامهما، وفى ذلك إشارة إلى خفة «أتى» وسرعتها فى النطق، وثقل المد فى «جاء»، بيد أن هذا الفارق لا يكاد يذكر أمام دقة المعنى المراد من كل منهما فى مواضعهما المختلفة.

يقول أحد الباحثين[1]: والذى نستشفه من استقراء الآيات الكريمة التى ورد فيها أحد اللفظين أو كلاهما أن بين اللفظين فوارق عميقة فى الدلالة، خلاصتها أن الإتيان تحيط به ثلة من معانى الغموض والشك والجهل وعدم القصد، أما المجئ فتحيط به معانى العلم واليقين وتحقق الوقوع والقصد، يتجلى ذلك فيما يأتى:

- فى حوار موسى وفرعون قال تعالى على لسان فرعون: ﴿**قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين**﴾[2]، فالمجئ فى الآية ذكر فى حق موسى عليه السلام، وما من شك فى أنه كان مستيقناً من تلك الآية، أما الإتيان بها فكان طلباً من فرعون على وجه التحدى، وذلك يدل على شك فى نفس فرعون، ولذلك أعقبها بقوله: ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾.
- فى كلام قوم عاد قال تعالى: ﴿**قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين**﴾[3]. فهود عليه السلام قد جاء حقاً ليأفكهم عن آلهتهم، وهم على علم بهذا، فعبروا عن ذلك بالمجئ، فى حين أنهم كانوا فى جهل وشك من حقيقة وعده وإيعاده، فطلبوا الإتيان بما جهلوا به من الوعيد برهاناً على صدقه على وجه التحدى-أيضاً- ولذلك أعقبوا قولهم بـ: ﴿**إن كنت من الصادقين**﴾.
- فى شأن مريم قال تعالى: ﴿**فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئاً فريا**﴾[4]. فإتيانها كان يحوطه غموض تجاه موقفهم، وشك فى عاقبة أمرها معهم، ولذلك تمنت الموت قبل هذا. فى حين أن قولهم: ﴿**جئت شيئا فريا**﴾، كان من وجهة نظرهم تعبيراً عن حقيقة، ولم يداخلهم شك

---

(١) الأستاذ: محمد نور الدين المنجد في كتابه (الترادف في القرآن الكريم، ص١٤٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٠٦. (٣) سورة الأحقاف: ٢٢.

(٤) سورة مريم: ٢٧.

فى صحة اعتقادهم، فعبروا عنه بالمجئ، وأنكروا عليها ذلك لطيب معدنها وصلاح أبويها.

- فى قوله تعالى: **﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾**[1]، فالمقابلة فى الآية بين الإتيان بمثل والمجئ بالحق، ومقابلة المثل بالحق تشى بأن المثل باطل وضلال أصله الجهل، فى حين أن الحق علم يقينى صادر عن عالم الغيب والشهادة، وعلى ذلك كان أهل التفسير.

يقول أبو حيان: «ولا يأتونك بمثل» بسؤال عجيب من سؤالاتهم الباطلة كأنه مثل فى البطلان إلا أتيناك نحن بالجواب الحق الذى لا محيد عنه، وبما هو أحسن معنى ومؤدى من سؤالهم»[2].

وقيل: ولا يأتونك بشبهة فى إبطال أمرك إلا جئناك بالحق الذى يدحض شبهة أهل الجهل.

فقد اقترن الإتيان بالجهل والباطل فى جانب الكفار، واقترن المجئ بالحق واليقين فى جانب الله تعالى.

- قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: **﴿يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتيك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً﴾**[3].

فالسياق فى هذه الآية واضح الدلالة على إثبات علم إبراهيم ويقينه مما جاءه، مقابل جهل أبيه فى حقيقة ما يعبد، وغموض العاقبة التى تنتظره، فهو فى ضلال وجهل، ولذا كان طلب إبراهيم **﴿فاتبعنى أهدك﴾**.

- قال تعالى على لسان قوم موسى: **﴿قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا﴾**[4].

فالسياق يدل على أن إتيان موسى كان غيباً لا يعلمه إلا الله، ويعين على ذلك قولهم ﴿من قبل﴾ فى حين أن مجيئه عليه السلام صارا حقاً مشهوداً، ويدل على ذلك قولهم ﴿من بعد﴾.

---

(١) سورة الفرقان: ٣٣.
(٢) انظر البحر المحيط، ج٦ ص٤٩٧.
(٣) سورة مريم: ٤٣.
(٤) سورة الأعراف: ١٢٩.

- كلمة «أتى» تستند غالباً إلى المعانى والأزمان، بينما كلمة «جاء» تستند إلى الجواهر والأعيان، والمتتبع للآيات القرآنية يجد ذلك واضحاً كل الوضوح، قال تعالى: ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾[1]. أى بصواع الملك، وقال: ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾[2]، ﴿وجئ يومئذ بجهنم﴾[3]. وقال سبحانه: ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾[4]. ﴿أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً﴾[5].

وقد اجتمعت الكلمتان فى قوله تعالى فى سياق قصة لوط عليه السلام ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون. وأتيناك بالحق وإنا لصادقون﴾[6].

فالذى جاءوا به العذاب وهو أمر مشاهد، والذى أتى به الحق.

وقد ذهب الراغب الأصفهانى إلى أن الإتيان إنما هو المجئ بسهولة، فهو أخص من مطلق المجئ والله تعالى أعلم.

---

(١) سورة يوسف: ٧٢.
(٢) سورة يوسف: ١٨.
(٣) سورة الفجر: ٢٣.
(٤) سورة النحل: ١.
(٥) سورة يونس: ٢٤.
(٦) سورة الحجر: ٦٣- ٦٤.

الريح - الرياح

يقول السيوطى فى الإتقان[1]: أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن أبىّ بن كعب قال: كل شئ فى القرآن من الرياح فهو رحمة، وكل شئ فيه من الريح فهو عذاب، ولهذا ورد فى الحديث: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً»، وذكر فى حكمة ذلك: أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والماهيات والمنافع، وإذا هاجت منها ريح أثير لها من مقابلها ما يكسر سورتها، فينشأ من بينهما ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات، فكانت فى الرحمة رياحاً، وأما فى العذاب فإنها تأتى من وجه واحد، ولا معارض لها ولا دافع، ولهذا وصفها الله بالعقيم فقال: **﴿وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم﴾**[2]، أى تعقم ما مرت به.

لم يأت لفظ «الرياح» -إذن- فى القرآن إلا فى مقام الخير والنعمة والرحمة[3]، قال تعالى: **﴿وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته﴾**[4]. **﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾**[5]. **﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته﴾**[6].

وورد لفظ الريح فى القرآن فى مقام العذاب والتخويف، يقول الراغب الأصفهانى[7]: «وعامة المواضيع التى ذكر الله تعالى فيها إرسال «الريح» بلفظ الواحد فعبارة عن العذاب، قال تعالى: **﴿مثل ما ينفقون فى هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته..﴾**[8]. **﴿أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى فيرسل عليكم قاصفاً من الريح فيغرقكم بما كفرتم﴾**[9]. **﴿وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية﴾**[10].

وهذه القاعدة مطردة إلا فى مواضع يسيرة لحكمة، منها قوله سبحانه:

---

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن ١/ ٦١٤.
(٢) سورة الذاريات: ٤١.
(٣) انظر: فقه اللغة وسر العربية للثعالبي، ص٣٥٢، تحقيق مصطفي السقا وآخرين، ط٢، الحلبي بمصر، ١٣٧٣هـ- ١٩٥٤م.
(٤) سورة الأعراف: ٥٧.
(٥) سورة الحجر: ٢٢.
(٦) سورة الروم: ٤٦.
(٧) انظر: مفردات الراغب، مادة (روح).
(٨) سورة آل عمران: ١١٧.
(٩) سورة الإسراء: ٦٩.
(١٠) سورة الحاقة: ٦.

﴿هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم ريح عاصف﴾[1]. فذكر ريح الرحمة بلفظ الإفراد لوجهين:

أحدهما: لفظى، وهو المقابلة، فإنه ذكر ما يقابلها ريح العذاب ﴿**جاءتها ريح عاصف**﴾، وهى لا تكون إلا مفردة.

الثانى: معنوى، وهو أن تمام الرحمة هناك إنما تحصل بوحدة الريح لا باختلافها، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد، فإن اختلفت عليها الرياح وتصادمت كانت سبب الهلاك والغرق، والمطلوب هنا ريح واحدة، ولهذا أكد هذا المعنى بوصفها بالطيب، دفعاً لتوهم أن تكون عاصفة، بل هى ريح يفرح بطيبها، وعلى ذلك -أيضا- جرى قوله تعالى: ﴿**إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره**﴾[2]. وهذا أورده ابن المنير فى كتابه على الزمخشرى، قال: الريح رحمة ونعمة، لأن سكونها عذاب وشدة على أصحاب السفن[3].

ولعل السبب فى ذلك أن ريح الشر تهب مدمرة عاصفة، لا تهدأ، ولا تدع الناس يهدؤون، فهى لاستمرارها ريح واحدة، لا يشعر الناس فيها بتحول ولا تغير، ولا يحسون بهدوء يلم بها، فهى متصلة فى عصفها وشدة تحطيمها، وذلك مصدر الرهبة منها والفزع.

أما الرياح التى تحمل الخير فتهب حيناً وتهدأ حيناً لتسمح للسحب أن تمطر، فهى متقطعة تهب فى هدوء، ويشعر المرء فيها بفترات سكون، وأنها رياح متتابعة، ففى تعبير القرآن تصوير للإحساس النفسى[4].

---

(١) سورة يونس: ٢٢.

(٢) سورة الشورى: ٣٣.

(٣) انظر: البرهان للزركشي ٤/ ١٢.

(٤) انظر: من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوي، ط٣، ١٣٧٠هـ- ١٩٥٠م، مكتبة نهضة مصر، القاهرة. والمشاهد في القرآن الكريم، د. حامد صادق قنيبي، ط١، ١٩٨٤م، مكتبة المنارة، الأردن.

ميت - ميّت

وردت كلمة «ميت» بالتشديد للمفرد اثنتى عشرة مرة، وورد جمعها مرفوعاً «ميتون» مرتين، وورد مجروراً مرة واحدة ﴿**بميتين**﴾.

بينما وردت كلمة «ميت» بالتسكين خمس مرات، وكانت الكلمة منصوبة فى المرات كلها، وذكرت كلمة «الميتة» ست مرات.

فما سر هذا التفاوت فى التعبير؟ وما الفرق بين الكلمتين (ميت - ميّت)؟

- الميت بالتشديد: هو الحى الذى فيه الروح، والميت بالتخفيف: هو الذى خرجت روحه منه.
- الميت بالتشديد: مخلوق حى، مازال يعيش حياته، وينتظر أجله، ومجئ ملك الموت إليه ليقبض روحه، أى إنه ميت مع وقف التنفيذ! ولا يدرى متى يبدأ التنفيذ؟

ولدى النظر فى سياق الآيات التى استخدمت كلمة «ميت» نرى هذا المعنى واضحاً.

من الأمثلة على ذلك قوله تعالى يخاطب رسوله ﷺ: ﴿**إنك ميت وإنهم ميتون. ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون**﴾[1].

تخاطب الآية أحياء، تخاطب الرسول ﷺ وتخبره أنه سيموت ﴿**إنك ميت**﴾ وأن خصومه الكفار سيموتون ﴿**وإنهم ميتون**﴾.

إذن - كل حى ميت حال حياته، أى إنه حى ينتظر قدوم الموت وحلول الأجل.

أما الميت بالتسكين فهو المخلوق الذى مات فعلاً، بأن خرجت روحه، وأصبح جثة هامدة، وقد أطلق فى القرآن على ما يأتى:

- البلد الميت: الذى لا حياة فيه، فيحييه الله بالمطر، قال تعالى: ﴿**والذى نزل من السماء ماء بقدر فأنشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون**﴾[2].
- الأرض الميتة التى لا نبات فيها فيحييها الله بالمطر، قال تعالى: ﴿**وآية لهم**

---

(١) سورة الزمر: ٣٠- ٣١. (٢) سورة الزخرف: ١١.

الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون﴾[1] .

- البهيمة الميتة التي خرجت روحها من دون ذبح شرعي، ولذلك حرمها الله علينا، قال تعالى: **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾**[2] .

- الميت: هو الإنسان الذى مات وخرجت روحه، وقد شبه الله -عزوجل- الذى يغتاب أخاه بمن يأكل لحم ذلك الإنسان الميت، قال تعالى: **﴿ولا يغت بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا﴾**[3] .

فالميت -إذن- هو الحى الذى ينتظر الموت، والميْت هو الذى مات فعلاً وخرجت روحه من جسده.. وإن صياغة الكلمتين وحركاتهما توحى بهذا الفرق بينهما:

فالميت ياؤه مشددة، ولعلها إشارة إلى إقبال الإنسان الحى على حياته الدنيا، وانهماكه فيها، وحرصه عليها بكل ما أوتى من قوة وشدة.

أما الميت الذى خرجت روحه، فياؤه ساكنة غير متحركة، ولعلها إشارة إلى سكون هذا الإنسان بعد خروج روحه، وتوقفه عن الحركة.

يقول الشاعر:

وتسألنى تفسير ميت وميّت ... فدونك ذا التفسير إن كنت تعقل

فمن كان ذا روح فذلك ميّت ... وما الميت إلا من إلى القبر يُحمل(٥)

---

(١) سورة يس: ٣٣. (٢) سورة المائد: ٣.

(٣) سورة الحجرات: ١٢.

(٤) انظر: لطائف قرآنية للخالدي، ص٦٣، ٦٦.

الفعل - العمل

فى كتابه معترك الأقران[1] يقول السيوطى موضحاً الفرق بين الفعل والعمل:

إن لفظ «عمل» يستعمل لما يمتد زمانه، وأما لفظة «الفعل» فعلى العكس من ذلك، فهو لما يكون دفعة واحدة.

والاستعمال القرآنى يؤيد هذا الفرق، والآيات الكريمة تشهد له خير شهادة، قال تعالى: ﴿**وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات**﴾[2]، حيث كان المقصود المثابرة عليها لا الإتيان بها مرة واحدة. وقال سبحانه: ﴿يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب...﴾[3]، حيث كان فعلهم بزمان.

أما استعمال لفظة «الفعل» فليس لها زمان مستمر، وإنما احدث دفعة واحد، قال تعالى: ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**﴾[4]، ﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد**﴾[5]، ﴿**وتبين لكم كيف فعلنا بهم**﴾[6]، فإنها إهلاكات وقعت من غير بطء، وقوله سبحانه: ﴿**والذين هم للزكاة فاعلون**﴾[7]، أى يأتون بها على سرعة من غير توان فى دفع حاجة الفقير.

وقوله تعالى: ﴿**يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾[8]، حيث يأتون بما يؤمرون فى طرفة عين، فينقلون المدن بأسرع من أن يقوم القائم من مكانه.

ومن خير الشواهد اليت توضح الفرق بين الفعل والعمل ما قصه الله علينا من نبأ موسى وفرعون، قال تعالى: ﴿**وفعلت فعلتك التى فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذن وأنا من الضالين**﴾[9].

والفعلة -هنا- هى قتل موسى عليه السلام للقبطى، وقد كان دفعة واحدة لا تدرج فيه من جهة، كما أنه من جهة أخرى كان أمراً غير مقصود

---

(١) انظر: معترك الأقران للسيوطي، ٣/ ٦٠٤، تحقيق البجاوي، طبعة دار الفكر العربي.

(٢) سورة البقرة: ٢٥.
(٣) سورة سبأ: ١٣.
(٤) سورة الفيل: ١.
(٤) سورة الفجر: ٦.
(٦) سورة إبراهيم: ٤٥.
(٧) سورة المؤمنون: ٤.
(٨) سورة النحل: ٥٠.
(٩) سورة الشعراء: ١٩- ٢٠.

ولا مراد لموسى عليه السلام، فكل الذى حدث منه وكز القبطى، والوكز عادة لا يقتل، لذلك سماه القرآن فعلاً[1].

ومن ينعم النظر فى آى القرآن يجد من ذلك ما يثلج الصدر.

وهذا الفرق هو الذى اقتصر عليه السيوطى رحمه الله تعالى.

وهناك فرق آخر لا يقل عنه دقة وروعة، وهو ما ذكره الراغب رحمه الله تعالى حيث قال: العمل كل فعل يكون من الحيوان بقصد، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل ينسب إلى الحيوانات التى يقع منها فعل بغير قصد، وقد ينسب إلى الجمادات[2].

والمتأمل فى الذكر الحكيم يجد ما يطمئن به قلبه، وتطيب به نفسه، قال تعالى: ﴿**ألم تر أن الله يسبح له من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون**﴾[3]. وقال تعالى: ﴿**قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون**﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿**وإن عليكم لحافظين. كراماً كاتبين. يعلمون ما تفعلون**﴾[5].

أما الآية الأولى والثانية فأمرهما ظاهر، فالفعل أسند إلى الحيوان من طير وغيره فى الآية الأولى، وإلى الجماد فى الآية الثانية.

وأما الآية الثالثة فإنه يلوح لنا منها سر رائع، فتعالى الله وجل المنزل حيث لم يقل: يعلمون ما تعلمون، لا من أجل غرض لفظى فحسب، وهو ما بين الفعلين (يعلمون وتعملون) من تقارب وتشابه فى الأحرف، وإنما لما هو أعمق من ذلك وأدق، وهو أن هؤلاء الملائكة لا يعلمون ما تقصدون إليه من عمل فقط، وإنما يعلمون ما وراء ذلك من خلجات النفوس وطرفة العين، والخواطر والهواجس، وكا ما لا يقصده المرء، فما أبدع الجمال القرآنى، وما أجمل بديع كلماته[6].

---

(١) انظر: البرهان للزركشي، ٤/ ٧٣.
(٢) انظر: المفردات، ص٣٤٨.
(٣) سورة النور: ٤١.
(٤) سورة الأنبياء: ٦٢- ٦٣.
(٥) سورة الانفطار: ١٠- ١٢.
(٦) تنظر: إعجاز القرآن الكريم، د. فضل عباس، وسناء فضل، ص١٧٤، ١٧٥.

الخضوع - الخشوع

- الخضوع فى اللغة يدور حول معانى التطامن والتواضع والانقياد والطاعة والسكون، ومظهره الخارجى خضوع الأعناق وتطامنها، ولهذا نسب الخضوع إليها فى قوله تعالى: ﴿**إن نشأ ننزل عليهم من السماء آية فظلت أعناقهم لها خاضعين**﴾(١).

ولهذا يقال: اختضع الصقر: طأمن رأسه للانقضاض، وخضعت الإبل فى سيرها إذا جدت، لأنها حينئذ تكون قد طأمنت أعناقها.

قال جرير:

ولقد ذكرتك والمطى خواضع وكأنهن قطا فلاة مجهل(٢)

كما يدل الخضوع على الميل فيقال: خضعت الشمس للمغيب، إذا مالت إليه.

والخضوع غالباً ما يكون عن ذل أدى إلى هذه الاستكانة والانقياد، فأخضعه الفقر: أذله، ويقال: أخضعتنى إليك الحاجة، وأخضع الرجل بالقول: ألان كلامه للمرأة، وفى الحديث أن النبى ﷺ نهى أن يخضع الرجل لغير امرأته. أى يلين لها القول بما يطمعها منه، وقال تعالى: ﴿**فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض**﴾(٣).

ولم يرد الخضوع فى القرآن الكريم فى غير الآيتين السابقتين، فالخضوع غالباً ما يكون عن ذل من الخاضع، سواء أكان بطبعه أم لخوفه أم لضعفه.

- والخشوع قريب من الخضوع، جاء فى اللسان: قيل: الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع فى البدن وهو الإقرار بالاستخذاء، والخشوع فى البدن والصوت والبصر، كقوله تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم**﴾(٤). وقوله سبحانه: ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن**﴾(٥).

قال ابن الأثير: والخشوع فى الصوت والبصر كالخضوع فى البدن(٦)، يقال: خشع فى صلاته، ودعائه إذا أقبل بقلبه على ذلك، وظهر أثره على

---

(١) سورة الشعراء: ٤.

(٢) انظر: ديوان جرير، ٢/ ٩٣٩، شرح محمد ب حبيب، تحقيق د. نعمان محمد طه، دار المعارف، مصر.

(٣) سورة الأحزاب: ٣٢. (٤) سورة المعارج: ٤٤. (٥) سورة طه: ١٠٨.

(٦) انظر: لسان العرب، ١/ ٨٣٥.

جوارحه، فغض بصره، وخفت صوته، وسكنت نفسه، إذ أصل الخشوع فى القلب كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: الخشوع فى القلب. وقال قتادة: الخشوع فى القلب، وهو الخوف وغض البصر فى الصلاة، فالخشوع مصدره القلب، لكن تظهر آثاره على الجوارح[1].

ولعل الخشوع مأخوذ من قولهم: خشعت الأرض إذا سكنت واطمأنت، قال تعالى: ﴿**ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت**﴾[2]. فاهتزازها وربوها الذى هو ارتفاعها مزيل لخشوعها[3].

وفى المصباح: الخضوع قريب من الخشوع، إلا أن الخشوع أكثر ما يستعمل فى الصوت، والخضوع فى الأعناق[4].

الخشوع -إذن- سكون القلب وتضرعه، بحيث تظهر آثار ذلك على الجوارح الظاهرة، فتخفت الأصوات وتنكسر الأبصار، وقد تذرف الدموع.

والخضوع جزء من الخشوع لاختصاصه بالبدن، قال تعالى: ﴿**ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً**﴾[5]. وقال سبحانه: ﴿**وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً**﴾[6]. وقال عزوجل: ﴿**ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق**﴾[7]. وقال تعالى: ﴿**خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة**﴾[8].

وتلفت الدكتورة بنت الشاطئ[9] -رحمها الله- نظرنا إلى أن خشوع المؤمنين لله فى الدنيا، وخشوع الكفار والمجرمين والظالمين فى الآخرة، وسره البيانى -فيما ترى- هو أن خشوع الكفار فى الآخرة لا يكون إلا بعد أن يأتى اليوم الذى يوعدون، فيخشعوا خوفاً ورهبة وذلة.

قال تعالى: ﴿**وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل**﴾[10].

أما المؤمنون فيخشعون فى الدنيا عن صدق وإيمان وتقوى وخشية لله تعالى، قال سبحانه: ﴿**إنهم كانوا يسارعون فى الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين**﴾[10].

---

(١) انظر: الفروق اللغوية، للشايع، ص٢٥٠. (٢) سورة فصلت: ٣٩.
(٣) انظر: أساس البلاغة للزمخشري، ص٢٣٢، ومفردات الراغب، ص٢١٣، وبصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي ٢/ ٥٢١.
(٤) انظر: المصباح المنير، للفيومي ١/ ٢٠٧. (٥) سورة الإسراء: ١٠٩.
(٦) سورة طه: ١٠٨. (٧) سورة الحديد: ١٦. (٨) سورة القلم: ٤٣.
(٩) انظر: الإعجاز البياني للقرآن، ص٢١١. وانظر الفروق اللغوية للشايع، ص٢٥٤
(١٠) سورة الشوري: ٤٥. (١٠) سورة الأنبياء: ٩٠.

عباد -عبيد

وردت كلمة «عباد» حوالى مائة مرة فى القرآن الكريم، وهى فى معظم هذه المرات وصف بها المسلمون المطيعون لله، حيث وصفوا بها وأطلقت عليهم أكثر من تسعين مرة، منها: قوله تعالى: ﴿**وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا**﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿**إن عبادى ليس لك عليهم سلطان**﴾[2]. وقوله عزوجل: ﴿**فبشر عباد. الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**﴾[3].

ولهذا لا نخطئ إذا قلنا: إن غالب كلمة «عباد» فى القرآن الكريم يراد بها المسلمون العابدون لله، وهذه الألف الممدودة «عباد» توحى بالعزة والمنعة والأنفة والرفعة، وكأنها مرفوعة الرأس منصوبة القامة باستمرار، ولهذا أطلق عليها بعض الباحثين[4]: ألف العزة، وهذه العزة والأنفة والرفعة نلحظها فى حياة العباد المؤمنين المطيعين لله تعالى، فالعباد المؤمنون يعيشون حياتهم فى الدنيا بعزة ورفعة واستعلاء، يحاربون الظلم، وينفرون من الذل، قاماتهم عزيزة منتصبة لا يحنونها إلا لله، ورؤوسهم مرتفعة عزيزة لا يخفضونها إلا لله.

ويواجه العبد المؤمن كل قوى الجاهلية بعزة العقيدة واستعلاء الإيمان، إنه مهما جرى له لا يحنى هاكته إلا لله، ومهما هدد أو أوذى وضيق عليه وعذب لا يطأطئ رأسه إلا لله.

وإذا كانت ألف «العباد» ألف العزة، فإن ياء «العبيد» هى ياء الذلة، وإذا كان غالب استعمال «عباد» فى القرآن الكريم للمؤمنين، فإن كلمة «عبيد» فى القرآن الكريم وردت وصفاً للكفار والعصاة، قال تعالى عن كفر اليهود: ﴿**لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾[5].

---

(١) سورة الفرقان: ٦٣.
(٢) سورة الحجر: ٤٢.
(٣) سورة الزمر: ١٧- ١٨.
(٤) انظر: د. صلاح عبد الفتاح الخالدي، لطائف قرآنية، ص٥٨.
(٥) سورة آل عمران: ١٨٨- ١٨٢.

وعن عذاب الكفار عند الاحتضار يقول الله تعالى: **﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق. ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد﴾**[1].

إن التعبير عن الكفار بكلمة «عبيد» يوحى بالذلة الملازمة للكفار، فهم أذلاء جبناء ضعفاء مهانون، لا يريدون العزة والرفعة، ولا يشعرون بالكرامة والأنفة، تجدهم أحرص الناس على حياة، وتراهم يذلون أمام المتسلطين الظالمين، لأن المهم عندهم هو أن يتكرم عليهم ذلك المتسلط الظالم بالحياة.. أى حياة!!

الكفار أذلاء.. أذلاء فى حياتهم وفى أشخاصهم وفى مواقفهم، ولأن كلمة «عبيد» وردت فى القرآن الكريم وصفاً لهؤلاء الكفار الأذلاء جاءت بالياء التى تشير إلى الذلة فى حياتهم.

إن الياء هنا هى ياء الذلة الملازمة لهم، بل إن صياغة الكلمة تحى بالذلة، لأن الياء جاءت وسط الكلمة منبطحة ملقاة بذلة، وصدق الله العظيم: **﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾**[2].

---

(١) سورة الأنفال: ٥١-٥٢.

(٢) انظر: لطائف قرآنية للخالدي، ص٦٢.

العمي - العمه

معلوم أن «العمى» هو فقدان البصر، وقد استعمل فى القرآن الكريم بمعنى فقد البصر كما فى قوله تعالى: ﴿**عبس وتولى أن جاءه الأعمى**﴾[1]، وهو الصحابى الجليل عبد الله بن أم مكتوم رضى الله عنه.

وكثيراً ما وردت كلمة «العمى» واشتقاقاتها فى القرآن الكريم بمعنى فقدان البصيرة، أو عمى القلب، كما فى مثل قوله تعالى: ﴿**أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كما هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب**﴾[2].

وكقوله تعالى: ﴿**ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا**﴾[3]. ولهذا قال تعالى: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور**﴾[4].

أما «العَمَه» فقد وردت منها صيغة الفعل المضارع «يعمهون» سبع مرات ومعظم المرات مسبوقة بالطغيان ﴿**فى طغيانهم يعمهون**﴾.

ومعنى «العمه» -كما يقول الراغب الأصفهانى فى مفرداته[5]- هو: «التردد فى الأمر من التحير»، والتردد والتحير يصيب القلب والعقل والفكر والتصور، ولهذا لا نخطئ إذا قلنا: إن العمه هو عمى القلب، وتكمن فيه الخطورة البالغة على صاحبه، لأن الإنسان يمكنه أن يعيش مع العمه وفقدان البصر، وقد يكون الأعمى صالحاً فيفوز بالجنة فى الآخرة.

أما إذا أصيب الإنسان بالعمه، وعمى قلبه وفقد بصيرته، ووقع فى التردد والحيرة والضلال فهذا هو الضلال والخسران المبين[6].

---

(١) سورة عبس: ١- ٢.
(٢) سورة الرعد: ١٩.
(٣) سورة الإسراء: ٧٢.
(٤) سورة الحج: ٤٦.
(٥) انظر: مفردات الراغب، ص٣٤٨.
(٦) انظر: لطائف قرآنية، د. صلاح الخالدي، ص٩٥، ٩٦.

التلاوة- القراءة

التلاوة والقراءة لفظان متقاربان فى المعنى، بينهما فروق دقيقة، وذلك أن التلاوة غالباً ما تستعمل فى مواقف الإجلال والاحترام والتعظيم، إضافة إلى أنها أحياناً تعنى القراءة بتنغيم معين، ولهذا يغلب استعمالها عند الإشارة إلى قراءة القرآن الكريم، بل خص بها -صاحب الكليات- قراءة القرآن الكريم بقوله: التلاوة هى قراءة القرآن متتابعة كالدراسة، والأوراد الموظفة[1].

ثم إن أصل التلاوة فى اللغة مأخوذ من إتباع الشئ الشئ، يقال: تلاه إذا تبعه، قال تعالى: ﴿**والشمس وضحاها. والقمر إذا تلاها**﴾[2].

-ومن ثم تكون التلاوة فى الكلمات الكثيرة حيث يتبع بعضها بعضاً، وبذلك يتحقق معنى التلو، وهذا لا يكون فى الكلمة الواحد، فتقول: قرآت الكلمة، ولا تقول: تلوتها، لأنه لا يصح فيها معنى التلو، إذ لا تابع لها مادامت كلمة واحدة[3]، والتلاوة فى الغالب تختص باتباع كتب الله المنزلة، تارة بالقراءة لها وتارة بالارتسام لما فيها من أمر ونهى وترغيب وترهيب ونحو ذلك.

وبهذا تكون التلاوة أخص من القراءة، فكل تلاوة قراءة، وليس كل قراءة تلاوة، فالقراءة أعم.

فقوله تعالى: ﴿**وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم**﴾[4] هذا فى القراءة.

وقوله سبحانه: ﴿**الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**﴾[5]، المراد بالتلاوة هنا الاتباع له بالعلم والعمل، ولهذا لا يفى بمعنى الآية تفسير التلاوة هنا بالقراءة، لأن المعنى ليس يقرؤونه حق قراءته.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة..**﴾[6].

وفى الغالب لا يقال: تلوت رسالتك-مثلاً- وإنما يقال: قرأتها.

يقول أبو هلال فى الفروق: الفرق بين القراءة والتلاوة: أن التلاوة لا تكون إلا لكلمتين فصاعداً، والقراءة تكون للكلمة الواحدة، يقال: قرأ فلان اسمه، ولا يقال: تلا اسمه. وذلك أن أصل التلاوة: اتباع الشئ الشئ، يقال: تلاه إذا تبعه، فتكون التلاوة فى الكلمات يتبع بعضها بعضا، ولا تكون فى الكلمة الواحدة، إذ لا يصح فيه التلو[7].

---

(١) انظر: الكليات لأبي البقاء، ص٢٢٦. (٢) سورة الشمس: ١-٢.
(٣) انظر: الفروق في اللغة لأبي هلال، ص٥٤، ومفردات الراغب، ص١٠٠.
(٤) سورة سبأ: ٤٣. (٥) سورة البقرة: ١٢١. (٦) سورة: فاطر: ٢٩.
(٧) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٥٤.

تستطع - تسطع

إذا نظرنا فى سورة الكهف، وفى قصة موسى مع الخضر-عليهما السلام- فسوف نقف على لطيفة من لطائف القرآن الكريم.

عندما قابل موسى الخضر-عليهما السلام- وعرض عليه أن يتبعه ليتعلم منه أخبره الخضر أنه لا يستطيع أن يصبر معه، لأنه سيفاجأ بأشياء وأحداث لن يصبر عليها.

ووعده موسى أن يصبر، وأن يطيع الخضر، ولا يعصى له أمراً، وطلب منه الخضر أن لا يعترض على أى شئ يراه، وأن لا يسأله عنه.

واتفقا وانطلقا، وخرق الخضر السفينة، واعترض موسى عليه، وذكّره الخضر بعهده فاعتذر موسى له، وبين له أنه كان ناسياً.

وانطلقا، وقتل الخضر غلاماً، واعترض موسى عليه، وذكّره الخضر بعهده، وتعهد موسى وجعله فى حل من الرحلة معه إن سأله.

وانطلقا، وذهبا إلى قرية أهلها بخلاء، فوجدا فيها جداراً على وشك السقوط، فقام إليه الخضر وأصلحه، واعترض موسى، وأشار له بأخذ أجرة من أهل القرية البخلاء، وافترق موسى والخضر، وقبل افتراقهما، قال له الخضر: **﴿هذا فراق بينى وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾**[1]، وبيّن له حقيقة الأحداث الثلاثة: خرق السفينة، وقتل الغلام، وبناء الجدار، وختم بيانه بقوله: **﴿ذلك تأويل ما لم تستطع عليه صبرا﴾**[2].

ونلاحظ أن التاء موجودة فى الفعل «تستطع» فى الآية الأولى، بينما هذه التاء محذوفة فى المرة الثانية: **﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾**.

ووجود التاء فى الفعل «تستطع» أمر لا يحتاج إلى تعليل، لأنه على الأصل، فالماضى «استطاع» والمضارع «تستطيع». لكن الذى يحتاج إلى تعليل هو حذف التاء من الفعل «تسطع».

إن حذفها فى المرة الثانية للتخفيف، ولهذا أسماها بعض الباحثين[3]

---

(١) سورة الكهف: ٧٨. (٢) سورة الكهف: ٨٢.

(٣) انظر: لطائف قرآنية، د. صلاح الخالدي، ص٥٢.

«تاء الخفة». أما إثباتها فلتناسب الثقل النفسى، كيف؟

لقد شاهد موسى- عليه السلام- من الخضر ثلاثة أفعال، وهى غريبة، وغير مقبولة فى الظاهر وتدعو إلى الإنكار والاعتراض، فكيف يخرق الخضر سفينة صالحة؟ وكيف يقتل غلاماً صغيراً؟ ولماذا بنى الجدار لقوم بخلاء من دون أجر؟

وقع موسى فى حيرة فى تأويل وتعليل الأحداث، وكأنه صار فى هم نفسى وشعورى ثقيل، ولاحظ السياق ذلك الهم النفسى الثقيل فأثبت التاء مع الفعل أول مرة، ليتفق ذلك مع الثقل النفسى الذى يعيشه موسى عليه السلام، ولذلك قال له الخضر: **﴿سأنبئك بتأويل ما لم تسطع عليه صبرا﴾**. وبعد ما علل الخضر لموسى-عليهما السلام- حقيقة الأحداث عرف موسى وجه الصواب فى تصرف الخضر، لقد خرق السفينة لتنجو من مصادرة الملك الظالم، وقتل الغلام ليستريح أبواه الصالحان من كفره، وبنى الجدار ليغطى كنزا لغلامين يتيمين تحته.

عرف موسى أن الخضر على حق وصواب فى تصرفاته الثلاثة، وبذلك زال الهم الذى سيطر عليه، والثقل النفسى الذى عاشه.

ولاحظ السياق زوال ذلك الثقل النفسى، فحذفت التاء من الفعل «تسطع» لتشارك التخفيف النفسى عند موسى بخفة فى حروف الفعل، والله أعلم[1].

---

(١) انظر: السابق، ص٥٤.

اسطاعوا - استطاعوا

ورد فى قصة ذى القرنين فى سورة الكهف أنه لما سار رحلته الثالثة نحو الشمال ووصل بين السدين، وشكا إليه القوم هناك غارات يأجوج ومأجوج- بنى لهم سداً منيعاً، وبذلك حماهم الله من يأجوج ومأجوج.

﴿حتى إذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوماً لا يكادون يفقهون قولاً. قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سدا. قال ما مكنى فيه ربى خير فأعينونى بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما. آتونى زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتونى أفرغ عليه قطرا. فما اسطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا﴾[1].

لقد «صهر» ذو القرنين الحديد، ثم صب فوقه النحاس المذاب، فتخلل النحاس الحديد، وبنى من ذلك السد، فجاء سداً قوياً منيعاً متيناً، ليس فيه نتوءات يتمكن يأجوج ومأجوج من استخدامها فى التسلق، وليس بناؤه ضعيفاً يقدر يأجوج ومأجوج على نقضه.

وعبر القرآن الكريم عن عجزهم عن تسلق الجدار والظهور فوقه بقوله: **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾** بحذف التاء من الفعل.

بينما عبر عن عجزهم عن نقضه بقوله: **﴿وما استطاعوا له نقبا﴾**، بإثبات التاء فى الفعل! فلماذا حذفت التاء فى المرة الأولى؟ وأثبتت فى المرة الثانية؟

إن حذف حرف من كلمة قرآنية، أو إثباته، أو تغيير حركته -أمر مقصود، لحكمة باهرة، ويتفق هذا مع السياق الذى ورد فيه، والجو الذى يشيعه، والمعنى الذى يقرره، وهذه ملاحظة مطردة فى أسلوب القرآن الكريم.

وهنا حذف «التاء» من فعل «اسطاعوا» يتفق مع المعنى الذى تقرره الجملة **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾**، أى ما اسطاع أفراد يأجوج ومأجوج تسلق جدار السد العالى الأملس الذى بنى من الحديد والنحاس، وكيف يتسلقونه وهو خال من النتوءات والمقابض التى يمسكون بها؟!

إن تسلق جدار السد يحتاج إلى خفة ورشاقة ومهارة، وكلما كان الشخص أكثر رشاقة ومهارة وخفة كان أقدر على التسلق، بينما تقل قدرته

---

(١) سورة الكهف: ٩٣- ٩٧.

على التسلق، وتضعف وتتلاشى إذا كان ثقيل الوزن كثير الشحم.

فلأن التسلق يتطلب هذه الخفة، جاء الفعل «اسطاعوا» مشاركا فى هذه الخفة، متخففاً من أحد حروفه، كما يتخفف المتسلق من بعض أحماله!!

فكان حذفها للخفة والتخفيف.

أما إثبات هذه التاء فى الفعل «استطاعوا» فهو يتفق مع المعنى الذى تقرره جملة: **﴿وما استطاعوا له نقبا﴾**.

إن نقب جدار السد يحتاج إلى جهد وكد، ويتحمل الإنسان فى ذلك كثيراً من المشقة والثقل النفسى والأدوات المادية التى ينقض بها الجدار، كما أنه يأخذ منه وقتاً طويلاً، يمر عليه ثقيلاً!

فلهذه الأثقال المادية الزمانية والمكانية والنفسية التى تقررها الجملة، جاء الفعل «استطاعوا» مشاركاً فيها بتثقيل إيقاعه وتركيبه عن طريق زيادة حروفه.

ولذلك جاءت «التاء» فى الفعل «استطاعوا» للتثقيل[1].

يقول صاحب ملاك التأويل: «فجئ أولاً بالفعل مخففاً عند إرادة نفى قدرتهم على الظهور على السد والصعود فوقه، ثم جئ بأصل الفعل مستوفى الحروف عند نفى قدرتهم على نقبه وخرقه، ولاشك أن الظهور أيسر من النقب، والنقب أشد عليهم وأثقل، فجئ بالفعل مخففاً مع الأخف، وجئ به تاماً مستوفى مع الأثقل، فتناسب، ولو قدر بالعكس لما تناسب، وأيضاً فإن الثانى فى محل التأكيد لنفى قدرتهم على الاستيلاء على السد وتمكنهم منه، فناسب بذلك الإطالة»[2].

ونخلص إلى «أنه لما كان صعود السد الذى هو سبيكة من قطع الحديد والنحاس أيسر من نقبه وأخف عملاً خفف الفعل للعمل الخفيف فحذف التاء، فقال: **﴿فما اسطاعوا أن يظهروه﴾**.. وطول الفعل فجاء بأطول بناء له للعمل الثقيل الطويل، فقال: **﴿وما استطاعوا له نقبا﴾، فحذف التاء فى الصعود وجاء بها فى النقب﴾**[3].

---

(١) انظر: لطائف قرآنية للخالدي، ص٥٦.

(٢) انظر: ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطي، تحقيق سعيد الفلاح، ٧٩١/٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) انظر: التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، ص٧٥، ط١، دار عمار، الأردن، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

الكُره - الكره

الكُره: بضم الكاف، والكره: بفتح الكاف، كلمتان متقاربتان فى البناء وتركيب الحروف وشكل الحركات، ومتقاربتان -أيضا- فى المعنى، لكن بينهما فروق، نستخرجها من النظر فى السياق القرآنى الذى وردتا فيه.

وردت كلمة «الكُره» بضم الكاف ثلاث مرات:

الأولى: فى تكليف القتال الشاق، قال تعالى: **﴿كُتب عليكم القتال وهو كُره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾**(١).

إن تكليف القتال شاق على النفس، ولهذا تراه صعباً شاقاً ثقيلاً، وقد تكرهه بعض النفوس وبخاصة ضعاف الإيمان، وقد تتثاقل عنه وتتباطأ نفوس، وقد تتخلى عنه وتتركه نفوس.

ولكن النفس المؤمنة تنفر إليه وتقوم به وتمارسه، أى إنها تطلبه وتريده رغم مشقته وصعوبته، ولها وصف بأنه «كره» بضم الكاف، أى إنه ثقيل وشاق، لكنه مطلوب مراد من قبل المجاهدين الصادقين، لما يترتب عليه من آثار ونتائج وثمار وإيجابيات فى الدنيا والآخرة.

الثانية والثالثة: وردتا فى الحديث عن حمل المرأة ووضعها، قال تعالى: **﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحسانا حملته أمه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا﴾**(٢).

إن حمل المرأة بجنينها شاق صعب متعب مرهق، يضعف جسمها، ويؤثر فى أعصابها ونفسيتها، وقد يصيبها بالأمراض، وقد يودى بحياتها، وقل مثل هذا فى آلام المخاض وأوجاع الطلق، ومشقة الوضع الذى تعانى منه المرأة ما تعانى.

لكن ألا ترغب المرة فى الحمل والإنجاب؟ ألا تحبه وتريده وتطلبه وتسعى إليه؟ ألا تلتذ به وتستعذبه وتشتاق إليه؟ وإذا مضى عليها شهور أو سنوات من دون حمل ألا تبذل جهدها فى ذلك وتذهب لأمهر الأطباء؟

وهى عندما تضع تصرح أنها إن قامت سالمة لن تحمل أبداً، ثم تنسى

---

(١) سورة البقرة: ٢١٦. (٢) سورة الأحقاف: ١٥.

هذه الآلام والأوجاع بعد نفاسها، وتطلب الحمل وتريده!!

سبحان من جعل الحمل والإنجاب حاجة فطرية فى كل امرأة سليمة سوية، لتستمر الحياة!

لهذا عبر القرآن عن حملها ووضعها بأنه «كره» أى فيه مشقة وصعوبة وثقل، فيه آلام وأوجاع وأخطار، لكنه مع ذلك مرغوب عند المرأة ومطلوب ومراد.

لقد أطلق القرآن الكريم كلمة «الكُره» وصفاً على الأمر الذى فيه مشقة وصعوبة، فيه ألم ومعاناة لكنه مطلوب من قبل صاحبه ومرغوب عنده، أى إن صعوبته مقرونة بالإرادة والرغبة، بل باللذة والشوق!

أما كلمة «الكره» بفتح الكاف، فقد وردت فى القرآن الكريم خمس مرات، منها قوله تعالى: ﴿**ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعاً وكرها وظلالهم بالغدو والآصال**﴾[1]. وقوله سبحانه: ﴿**أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوماً فاسقين**﴾[2]. وقوله عزوجل: ﴿**يا أيها آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا المساء كرها**﴾[3].

نلاحظ في الآية الأولى ورود كلمة «كره» بمعنى الإكراه والإجبار والقسر، وذلك لأن الأمر والتكليف جاء من الخارج.

الكافر يسجد لله مكرهاً مجبراً- رغم أنفه- والمراد بالسجود -هنا- الخضوع، وهو يتناول الجانب اللاإرادى من كيانه-مثل أجهزة جسمه ونواميس حياته- لهذا اعتبر سجوده وخضوعه «كرها» بفتح الماف، وليس هكذا سجود المؤمن وخضوعه لله، ولهذا وصفه القرآن الكريم بأنه ﴿طوعا﴾ وجعله مقابلاً ومضاداً لاستسلام الكافر وخضوعه الجبرى لله تعالى.

والآية الثانية تشير إلى أن إنفاق المنافقين رغم أنوفهم إنفاق بسبب القسر والإجبار والإكراه، وذلك لأنهم يريدون به التمويه على المسلمين، ولهذا وصف إنفاقهم بأنه «كره» بفتح الكاف.

والآية الثالثة تشير إلى ما كان فى الجاهلية، إذ كان الإنسان يرث زوجة

---

(١) سورة الرعد: ١٥. (٢) سورة التوبة: ٥٣.

(٣) سورة النساء: ١٩.

أبيه بأن يضع ثوبه عليها فتكون له من جملة الموروثات، وطبعاً ترفض المرأة هذا التصرف وتكرهه، لأنه إجبار وقسر لها، ولهذا سماه القرآن «كرها» بفتح الكاف، ونهى المؤمنين عن هذا التصرف الجاهلى البشع وحرمه عليهم.

إذن «الكره» بالضم: الأمر الشاق الصعب لكنه مرغوب ومطلوب.

و«الكره» بالفتح: الأمر المكروه المفروض الذى يأتى من الخارج ويحمل طابع الإكراه والجبر والقسر[1].

يقول الراغب الأصفهانى فى التفريق بينهما:

الكَره: المشقة التى تنال الإنسان من خارج، فيما يحمل عليه بإكراه.

والكُره: ما يناله من ذاته وهو يعافه، وذلك على ضربين:

أحدهما: ما يعاف من حيث الطبع.

والثانى: ما يعاف من حيث العقل أو الشرع.

ولهذا يصح أن يقول الإنسان فى الشئ الواحد: إنى أريده وأكرهه، بمعنى: إنى أريده من حيث الطبع، وأكرهه من حيث العقل أو الشرع، أو أريده من حيث العقل أو الشرع، وأكرهه من حيث الطبع»[2].

---

(١) انظر: لطائف قرآنية للخالدي، ص٨٢- ٨٦.

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، ص٤٢٩.

الجسم - الجسد

الجسم والجسد كلمتان متقاربتان فى الحروف وفى المعنى، وتطلقان على بدن الإنسان، لكن ما الفرق بينهما فى القرآن الكريم؟ ومتى يسمى بدن الإنسان جسماً؟ ومتى يسمى جسداً؟

وردت كلمة الجسم مرتين فى القرآن الكريم بمعنى: البدن فيه حياة.

قال تعالى عن طالوت مبيناً مؤهلاته ليكون ملكاً على بنى إسرائيل: ﴿**إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم**﴾(١).

وقال تعالى عن اهتمام المنافقين بأجسامهم على حساب قلوبهم، واهتمامهم بالصورة والشكل على حساب الجوهر والمضمون: ﴿**وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة**﴾(٢).

ونلاحظ من الآيتين أنهما تتحدثان عن الأحياء فطالوت ملك حى، والمنافقون أحياء يتكلمون، وأطلقت كلمة أجسام على الأبدان فى هذه الحالة.

أما كلمة «جسد» فقد وردت أربع مرات فى القرآن الكريم: وردت مرتين فى وصف العجل (التمثال) الذى صنعه السامرى من الذهب لبنى إسرائيل، ودعاهم إلى عبادته، مستغلاً غيبة موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿**واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار**﴾(٣).

وقال سبحانه: ﴿**فأخرج لهم عجلاً سجداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسى**﴾(٤).

وأطلقت كلمة الجسد على ابن سليمان عليه السلام، الذى ولد ميتاً مشوهاً، قال تعالى: ﴿**ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب**﴾(٥).

---

(١) سورة البقرة: ٢٤٧.
(٢) سورة المنافقون: ٤.
(٣) سورة الأعراف: ٤٨.
(٤) سورة طه: ٨٨.
(٥) سورة ص: ٣٤.

والمرة الرابعة التى وردت فيها كلمة «جسد» : فى بيان أن الأنبياء كانوا رجالاً أحياء ذوى أجسام متحركة، ولم يكونوا أجساداً هامدة، قال تعالى: ﴿**وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحى إليهم، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون. وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام وما كانوا خالدين**﴾[1].

من هذا نعلم أن كلمة «جسد» فى السياق القرآنى وردت صفة للجماد وللميت الذى لا روح فيه، ونفيت عن النبى الحى المتحرك.

وبهذا نعرف الفرق بين الجسم والجسد فى القرآن.

فالجسم يطلق على البدن الذى فيه حياة وروح وحركة.

والجسد يطلق على التمثال الجامد، وبدن الإنسان بعد وفاته وخروج روحه[2].

---

(١) سورة ص: ٣٤. (٢) سورة الأنبياء: ٧- ٨.

(٣) انظر: لطائف قرآنية للخالدي، ص٨٨.

الشرعة - المنهاج

قال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم﴾[1].

يذهب فريق من الناس إلى أن لفظتى الشرعة والمنهاج كلمتان بمعنى واحد، وأن المراد بهما «الدين» وجاء التكرير هنا لمجرد التأكيد.

جاء فى تفسير النيسابورى قوله: «وهما عبارتان عن معبر واحد هو الدين». والتكرير للتأكيد»[2].

ونقل ابن الجوزى أنهما بمعنى واحد، وإنما نسق أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظين[3].

ويذهب بعض العلماء إلى أن بين اللفظتين فرقاً دقيقاً، وقد غلط ابن تيمية من قال: إن شرعة ومنهاجاً معناهما واحد، مؤكداً أن مثل هذا لا يجئ فى القرآن ولا فى فصيح الكلام[4].

جاء بطرق كثيرة مختلفة عن ابن عباس فى قوله تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾ أنه قال: سنة وسبيلاً[5]، وروى عنه: سبيلاً وسنة»، واختاره ابن كثير[6].

وفى مسائل ابن الأزرق أنه سأل ابن عباس عن قوله تعالى: ﴿شرعة ومنهاجاً﴾، فأجابه: الشرعة: الدين، والمنهاج: الطريق، واستشهد على ذلك بقول أبى سفيان الحارث بن عبد المطلب:

لقد نطق المأمون بالصدق والهدى وبين للإسلام ديناً ومنهجاً[7]

---

(١) سورة المائدة: ٤٨.

(٢) انظر: نفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري، طبع في حاشية تفسير الطبري، ٦/ ١٥٦، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٩هـ.

(٣) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، ٢/ ٣٧٢.

(٤) انظر: الإيمان لابن تيمية، ص١٦٩، ط٢، ١٣٩٢هـ، المكتب الإسلامي للطبع والنشر.

(٥) انظر: تفسير ابن جرير الطبري (جامع البيان عن تأويل القرآن)، ٦/ ١٧٤، طبعة دار المعارف بمصر، وطبعة دار الفكر بيروت، ١٣٩٨هـ.

(٦) انظر: تفسير ابن كثير، ٦٦/٢، دار إحياء الكتب العربية، عيسي الحلبي، مصر.

(٧) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيرطي، ١ ١٢٠.

وتعقب بنت الشاطئ على هذا بأن تفسير الشرعة بالدين قريب، مع فرق دقيق بينهما تعطيه دلالة الدين أصلاً على الطاعة والانقياد، ودلالة الشرعة على الطريق الواضح، وهى فى أصل اللغة من شريعة الماء بما تعطى من رى ونجاة، والمنهاج ليس كذلك مجرد طريق، ولكنه الطريق المعبد المأمون[1].

وقيل فى الفرق بين اللفظتين: إن الشرعة: الطريق الذى ربما كان واضحاً، وربما كان غى ذلك، والمنهاج: الطريق الذى لا يكون إلا واضحاً، ذكره ابن الأنبارى[2].

واشتقاق الشرعة، إما من شرع بمعنى بيّن وأوضح، من قولهم: شرعت الإهاب إذا شققته وسلخته، أو من شرع فى الشئ إذا دخل فيه[3].

والشرعة فى اللغة تطلق على مورد الناس للاستقاء، سميت بذلك لوضوحها وظهورها وتقول اللغة أيضاً: الناس فى هذا شرع واحد، أى سواء، ومنه سمى الشارع حيث المرور فيه حق مشترك للجميع على حد سواء[4].

ومن خلال ما تقدم نجد أن المعنى اللغوى للكلمة يدور حول الوضوح والظهور، كما يدور على السهولة واليسر، مع المساواة فى إتاحة الأمر للجميع على حد سواء، من غير تفضيل لأحد على آخر.

يقول الراغب الأصفهانى: «فالشرع: نهج الطريق الواضح، وهو فى أصله مصدر من قولهم: شرعت له طريقاً، ثم جعل اسماً للطريق النهج واستعير ذلك للطريقة الإلهية».

فأصبح يدل على ما شرع الله لعباده من أحكام الدين وسنه لهم وافترضه عليهم، وجعلهم فى حكمه سواسية، لا فضل لأحدهم على الآخر.

وقوله تعالى: **﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾**[5].

---

(١) انظر: الإعجاز البياني ومسائل نافع بن الأزرق، ص٢٨٠.
(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي، ٢/ ٣٧٢.
(٣) انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، ٣/ ٤٤.
(٤) السابق، ٣/ ٤٤.
(٥) سورة الشوري: ١٣.

إشارة إلى وحدة شرائع الله ودياناته إلى الأم في أصولها من معرفة الله وتوحيده وإقامة دينه وما إلى ذلك.

وأما النهج فهو: الطريق الواضح، والمنهج والمنهاج مثله، ونهج الطريق ينهج نهوجاً وضح واستبان، قال ابن جرير الطبرى: «المنهاج أصله: الطريق البين الواضح، ثم يستعمل فى كل شئ كان بيناً واضحاً سهلاً، فمعنى الكلام: لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمه، وسبيلاً واضحاً يعمل له»(١).

فمدار الشريعة على الظهور والسهولة واليسر من غير صعوبة أو مشقة مع التساوى فى إتاحة الفرصة.

ومدار المنهاج على الوضوح -والاستبانة من غير غموض أو التواء أو إبهام(٢).

(١) انظر: تفسير ابن جرير الطبري ١٠/ ٣٨٤.

(٢) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢٤٤، ٢٤٨.

السبيل - الطريق

يعتقد بعض الناس بترادفهما ودلالة أحدهما على كامل معنى آخر، غير أن البيان القرآنى فضل استعمال لفظة «السبيل» على لفظة «الطريق» فى بيانه المعجز، يتضح ذلك من إحصاء استعماله لكل لفظة منهما فى بيانه، فقد جاء استعمال لفظة السبيل فى أسلوب القرآن الكريم- بمختلف تصاريفه- فى نحو مائة وأربعة وسبعين موضعاً[1].

وكان استعمال لفظة «الطريق» بتصاريفها فى نحو أربعة عشر موضعاً فقط.

وحين نلتمس دواعى هذا التفضيل الذى لم يأت جزافاً أو عبثاً نجد أن مدار لفظة «السبيل» على اليسر والسهولة والوضوح، إضافة إلى أن تتبع استعمالها يشير إلى أنها أغلب وقوعاً فى الخير.

بينما لا يكاد اسم الطريق يراد به الخير إلا مقترناً بوصف أو إضافة تخلصه لذلك وتدل عليه[2]، كما فى قوله تعالى **﴿يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم﴾**[3].

كما يغلب استعمال الطريق حين يكون الخطاب فى مجال العتاب والتهديد للكفار والمنافقين ونحوهم، كما فى قوله تعالى: **﴿إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقاً. إلا طريق جهنم﴾**[4].

وقوله سبحانه: **﴿وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً﴾**[5].

والطريق يطلق على كل ما يطرقه طارق معتاداً كان أو غير معتاد.

أما السبيل فإنها تطلق على الطريق الذى فيه سهولة، فهى فى المعنى الحسى أخص من الطريق، إذ هى تطلق على ما هو معتاد السلوك من الطريق.

ولفظة السبيل تقع على أوسع مما تقع عليه لفظة الطريق، فيعبر بالسبيل

---

(١) راجع: معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية، ١/ ٥٤٦، ٧٣٩. ومعجم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم ١/ ٢٥٦.

(٢) انظر: القاموس المحيط ٣/ ٣٩٢، ومفردات الراغب ص٣٢٦. والبرهان للزركشي ٤/ ٨٠.

(٣) سورة الأحقاف: ٣٠. (٤) سورة النساء: ١٦٨- ١٦٩.

(٥) سورة الجن: ١٦.

عن المحجة، قال تعالى: ﴿قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة﴾[1].

ويقال: فلان ما عليه من سبيل، أى من حجة. ولا يقال: ما عليه من طريق. قال تعالى: ﴿ما على المحسنين من سبيل﴾[2]. وقال سبحانه: ﴿إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء﴾[3].

كما يلاحظ فى البيان القرآنى اختصاص لفظة «السبيل» بإضافتها إلى الله فى كثير من الآيات، وهذا خلاف للفظة «الطريق» فلم تضف إليه سبحانه أبداً، قال تعالى: ﴿ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات﴾[4]. وقال: ﴿..وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله﴾[5].

وورود السبيل فى القرآن الكريم بمعنى الطريق الحسى قليل كما فى قوله تعالى: ﴿وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلاً﴾[6]. وقال ﴿ولا جنباً إلا عابرى سبيل﴾[7].

وفى هذا إشارة إلى السرعة فى المرور، وهو ما يتحقق بسهولة الطريق.

لكن يكثر فى القرآن الكريم استعمال السبيل بمعناه المعنوى، كما فى قوله تعالى: ﴿ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل﴾[8].. إلى غير ذلك من الآيات.

فدلالة لفظة «السبيل» على اليسر والسهولة والوضوح، وكونها أغلب وقوعاً فى الخير وفى الحديث مع المسلمين أو عنهم.

واختلاف اللفظتين فى بعض مجالات الاستعمال، بحيث تصلح إحداهما دون الأخرى، واختصاص لفظة السبيل بإضافتها إلى الله سبحانه، وكثرة استعمالها فى القرآن الكريم دون لفظة «الطريق»- كل ذلك يدل على وجود فروق بينهما[9].

---

(١) سورة يوسف: ١٠٨.
(٢) سورة التوبة: ٩١.
(٣) سورة التوبة: ٩٣.
(٤) سورة البقرة: ١٥٤.
(٥) سورة: التوبة: ٦٠.
(٦) سورة النحل: ١٥.
(٧) سورة النساء: ٤٣.
(٨) سورة البقرة: ١٠٨.
(٩) انظر: الفروق اللغوية للشايع، ص٢٦٣- ٢٦٦.

اليأس - القنوط

اليأس قيل هو: القنوط، وهو ضد الرجاء[1]، وقيل: هو انتفاء الطمع، وانقطاع الرجاء من الشئ[2].

واليأس قد يكون قبل الأمل، وقد يكون بعده، قال تعالى: ﴿**حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**﴾[3].. وقال سبحانه مبيناً حالة إخوة يوسف حين انقطع بهم الأمل فى محاولتهم العودة بأخيهم إلى أبيهم: ﴿**فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا**﴾[4].

ومما يلفت النظر فى استعمال القرآن الكريم إسناده اليأس إلى الكفار فى أكثر من آية ورد بها ذكر اليأس، قال تعالى: ﴿**اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون**﴾[5]. وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور**﴾[6]. وقال سبحانه: ﴿**ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون**﴾[7].

أما قوله تعالى: ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً**﴾[8]. فقد فسرت بمعنى العلم.

قال أبو البقاء فى الكليات[9]: كل يأس فى القرآن فهو قنوط إلا التى فى سورة الرعد فإنها بمعنى العلم.

ويقول الراغب الأصفهانى: ﴿**أفلم ييأس الذين آمنوا**﴾ قيل معناه: أفلم يعلموا، ثم قال: «ولم يرد فى كلامهم أن اليأس موضوع للعلم، وإنما قصد أن يأس الذين آمنوا من ذلك يقتضى أن يحصل بعد العلم بانتفاء ذلك[10].

---

(١) انظر: لان العرب، ٣/ ١٠٠٢. والقاموس المحيط ٢/ ٢٦٠.
(٢) انظر: مفردات الراغب، ص٨٥٠. والكليات لأبي البقاء، ص٧١٣.
(٣) سورة يوسف: ١١٠.
(٤) سورة يوسف: ٨٠.
(٥) سورة المائدة: ٣.
(٦) سورة الممتحنة: ١٣.
(٧) سورة يوسف: ٨٧.
(٨) سورة الرعد: ٣١.
(٩) انظر: الكليات لأبي البقاء، ص٧٠٦.
(١٠) انظر: المفردات، ص٨٥١.

وأما القنوط فقيل: هو اليأس، وقيل: إنه أشد اليأس[1]، وعرفه الراغب بأنه: اليأس من الخير[2]، فهو -إذن- أخص من مطلق اليأس.

وعرفه صاحب المصباح المنير[3] بأنه الإياس من رحمة الله تعالي.

وتخصيص القنوط بالإياس من الرحمة يشهد له أكثر من آية جاء بها ذكر «القنوط»، قال تعالى: ﴿**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم**﴾[4].

وقال سبحانه: ﴿**قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين. قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون**﴾[5].

وقال سبحانه: ﴿**وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته**﴾[6].

وهذه نسبة كبيرة إذا علمنا أن القنوط ورد فى القرآن الكريم ست كرات.

فالقنوط أخص من اليأس، سواء أكان تعريفه أنه أشد اليأس وأبلغه، أم أنه اليأس من الخير، أم اليأس من رحمه الله وهى جزء من الخير.

وقيل: إن اليأس من صفة القلب، والقنوط ظهور آثار هذا اليأس على الوجه والأحوال الظاهرة، فيتضاءل وينكسر وينقطع رجاؤه من فضل الله ورحمته[7].

ونخلص إلى أن سياق الآيات وتخصيص إسناد اليأس إلى الكفار يوحى بأن اليأس أعم من القنوط، كما يوحى بأن اليأس أشد من القنوط.

وسياق آيات القنوط يشير إلى تخصيصه بالإياس من الرحمة[8].

---

(١) انظر: لسان العرب، ٣/ ١٣٢. والفروق في اللغة، لأبي هلال، ص٢٤٠.

(٢) انظر: المفردات، ص٦٢٤.

(٣) انظر المصباح المنير: ٢/ ٦٢٥.

(٤) سورة الزمر: ٥٣.

(٥) سورة الحجر: ٥٥- ٥٦.

(٦) سورة الشوري: ٢٨.

(٧) انظر: تفسير الكشاف للزمخشري، ٣/ ٤٥٧. وتفسير الرازي، ٢٧/ ١٣٧.

(٨) انظر: الفروق اللغوية للشايع ص٢٧٣.

الشك - الريب

يفسر الريب فى القرآن الكريم بالشك، حتى قال الزركشى فى البرهان: كل شئ فى القرآن من ريب فهو شك، غير حرف واحد، وهو قوله تعالى: ﴿**أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون**﴾[1]، فإنه يعنى حوادث الدهر[2].

وقد جاء تفسير الريب بالشك عن كثير من السلف، لكنه لا يلزم منه اعتقاد ترادفهما ترادفاً تاماً، لأن ذلك التفسير إنما هو تقريب للمعنى لا تحقيق دقيق له، ومن أوضح الشواهد على ذلك مجئ الريب وصفاً للشك فى ست آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفى شك مما تدعونا إليه مريب**﴾[3].. وقوله سبحانه: ﴿**وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل إنهم كانوا فى شك مريب**﴾[4].

فمجئ الريب وصفاً للشك، من غير عكس- حيث لم يجئ الشك وصفاً للريب- دليل على ما بين اللفظين من فرق، وأنهما غير مترادفين ترادفاً تاماً كما هو ظن فريق من الناس، فلم يتبادلا فى كل سياق، ولأن الشئ لا يوصف بنفسه.

وهذا يعنى أن الشك إنما هو تقريب لمعنى الريب، لكن يبقى لكل لفظة دلالتها المتميزة التى تختص بها دون الأخرى.

فلفظة الريب يبدو انطواؤها على معان شعورية، تعود إلى قلق النفس واضطرابها، والشك ليس هو التفسير الوحيد للريب والريبة، وإنما تأتى بمعنى القلق والتهمة والحاجة والظن.

يقول ابن الأثير: الريب هو بمعنى الشك، وقيل: هو الشك مع التهمة، يقال: رابنى الشئ وأرابنى بمعنى شككنى، وقيل: أرابنى فى كذا أى شككنى وأوهمنى الريبة فيه، فإذا استيقنته قلت: رابنى بغير ألف[5].

وفرق أبو هلال العسكرى بين الشك والارتياب بأن الارتياب شك مع تهمة، والشاهد أنك تقول: إنى شاك اليوم فى المطر، ولا يجوز أن تقول: إنى مرتاب بفلان، إلا إذا شككت فى أمره واتهمته، ولهذا تعرف الريبة بأنها

---

(١) سورة الطور: ٣٠.
(٢) انظر: البرهان للزركشي، ١/ ١٠٧.
(٣) سورة هود: ٦٢.
(٤) سورة سبأ: ٥٤.
(٦) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير، ٢/ ٢٨٦، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

الخصلة من المكروه تظن بالإنسان فيشك معها فى صلاحه[1].

ويؤيد نور الدين الجزائرى تفسير الريب بأنه الشك مع التهمة، مستدلاً على ذلك بقوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾[2]، وأن المشركين مع شكهم فى القرآن كانوا يتهمون النبى ﷺ -ظلماً وزوراً- بأنه هو الذى افتراه، وأعانه عليه قوم آخرون[3].

فالريب: شك وزيادة ظن سوء، والشك المريب: هو الشك الموقع فى الحيرة والاضطراب والقلق.

وهذا يعنى أن الريب أبلغ من الشك وأشد تمكناً فى النفس من مجرد التردد بين شيئين، وذلك لما فى الارتياب من اتهام وميل إلى ترجيح أحد الطرفين.

أما الشك فيعرفه الراغب الأصفهانى بأنه: اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما، وهذا ينتج عن عدم وجود أمارة مرجحة أصلاً لأحد الطرفين، أو وجود أمارتين متساويتين[4].

يقال: شك فى الشئ: تردد فيه، ولم يصل فيه إلى اليقين، فهو شاك، قال الله تعالى: ﴿فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك﴾[5]، أى إن كنت غير مستيقن.

الشك يدل فى معانيه على التداخل، وهذا يعنى أن اللفظة تحمل معانى الالتباس والاستغلاق، وهذا ما يؤدى إلى عدم استبانة الصواب ووضوح الحق فى نظر الشاك، وهذه الحالة تفضى به إلى القلق والاضطراب فيحرم الطمأنينة والارتياح، وهذا هو الارتياب، فالشك- إذن- سبب الارتياب.

يقول صاحب الكليات: «فالشك سبب الريب، كأنه شك أولاً فأوقعه ذلك الشك فى الريب، فالشك مبدأ الريب، كما أن العلم مبدأ اليقين»[6].

ومن هنا نفهم مجئ الشك موصوفاً بالريب فى القرآن الكريم.

وننتهى إلى أن الريبة ليست هى الشك، وإنما هى نتيجته وحصيلته وأن تفسير الريب بالشك مع التهمة أقرب وأصوب، إذ إن حقيقة الريبة قلق النفس واضطرابها، والشك تردد يفضى إلى تلك الحالة، وبهذا يصبح تفسير الريب بالشك إنما هو تقريب للمعنى لا تحقيق دقيق له[7].

---

(١) انظر: الفروق في اللغة، لأبي هلال، ص٩٢.
(٢) سورة البقرة: ٢.
(٣) انظر: فروق اللغات، نور الدين الجزائري، ص١١٠.
(٤) انظر: المفردات، ص٣٣٨.
(٥) سورة يونس: ٩٤.
(٦) أنظر: الكليات لأبي البقاء ص٣٨٦.
(٧) أنظر: الفروق اللغوية للشايع ص٢٢٧.

نكر - منكر

كلمتان متقاربتان وردتا فى القرآن الكريم، مادتهما الأصلية واحدة، وهما: النكر والمنكر، وأصلهما «نكر».. فهل هناك فرق بين الكلمتين؟

قال الإمام الراغب الأصفهاني عن «نكر»: الإنكار ضد العرفان، يقال: أنكرت كذا، ونكرت. وأصله: أن يرد على القلب ما لا يتصوره.. وقد يستعمل ذلك فيما ينكر بَاللسان.

والمنكر: كل فعل تحكم العقول الصحيحة بقبحه، أو تتوقف فى استقباحه واستحسانه العقول، فتحكم بقبحه الشريعة.

والنكر: الدهاء، والأمر الصعب الذى لا يُعرف..»[1].

لقد وردت كلمة «نُكراً» فى القرآن الكريم ثلاث مرات، وكلمة «نُكر» مرة واحدة، وكلمة «منكر» ست عشرة مرة، نتأمل منها ما يأتى:

لما سار موسى مع الخضر عليهما السلام أقدم الخضر على قتل غلام صغير: **﴿حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا﴾**[2].

لقد أنكر موسى على الخضر قتله للغلام، واعتبر فعله يدعو للنكر والإنكار، ولهذا أنكر موسى عليه فعله ﴿لقد جئت شيئا نكرا﴾.

لكن الخضر كان على صواب فى قتله الغلام، ولذا قال لموسى فيما بعد: **﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفرا. فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحما﴾**[3].

فالفعل «قتل الغلام» فى ظاهره خطأ يدعو للإنكار، ولكنه فى حقيقته صحيح وصواب، ولهذا وصفه بأنه «نكر» وليس «منكرا».

أما كلمة «منكر» فإنها تعنى: الأمر الشائن، والتصرف القبيح، والفعل المحرم، والشئ الباطل، قال تعالى: **﴿وإنهم ليقولون منكراً من القول وزورا﴾**[4].

أى يقولون قولاً خاطئاً منكراً محرماً.

---

(١) انظر: المفردات، ص٥٠٥.
(٢) سورة الكهف: ٧٤.
(٣) سورة الكهف: ٨٠- ٨١.
(٤) سورة المجادلة: ٢.

وقد أوجب الله على المسلمين إنكار المنكر فى أكثر من آية نكتفى منها بقوله تعالى: **﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾**[1].

القرآن -إذن- فرق بين النكر والمنكر.

فالنكر: هو الأمر الذى قد يستغربه الإنسان وينكره، لأنه يظنه خطأ، مع أنه فى حقيقته صدق وصواب.

أما المنكر: فهو الأمر الذى ينكره الشرع ويرفضه ويحرمه ويدعونا إلى محاربته وإنكاره، لأنه باطل وخطأ، ولو رضى به بعض الناس وقبله.

فكل «نكر» صواب فى ميزان الله، وإن أنكره بعض الناس!

وكل «منكر» خطأ فى ميزان الله، وإن قبله بعض الناس!

والمعتبر فى القبول والإنكار ليس أعراف الناس أو تشريعاتهم أو مناهجهم -فقد يقبلون باطلاً، وقد ينكرون حقاً- ولكنه ميزان الله وشريعته سبحانه.. لأن الله عليم حكيم **﴿قل أأنتم أعلم أم الله﴾**[2].

---

(١) سورة آل عمران: ١٠٤.

(٢) انظر: لطائف قرآنية، د. صلاح للخالدي، ص٧٢.

إن - إذا

من اللطائف العجيبة فى القرآن الكريم استخدام «إن» ، و«إذا» وهما أداتان من أدوات الشرط.

ويعرف النحاة «إن» الشرطية بقولهم: إنها حرف جازم يجزم فعلين، الأول فعل الشرط، والثانى جواب الشرط وجزاؤه، وهى فى نظرهم أم الباب، أى الأداة الرئيسة فى أدوات الشرط.

ويقولون عن «إذا» : إنها ظرف لما يُستقبل من الزمان- وأحياناً للماضى بوجود قرينة- يتضمن معنى الشرط ولا يجزم، خافض لشرطه منصوب بجوابه.

ولم يفرق الناس فى أحاديثهم وكتاباتهم شعراً ونثراً، قديماً وحديثاً بين دلالة «إن» و «إذا» ، فهم يستعملون كلاً منهما، إحداهما مكان الأخرى، وفق ما يسبق إلى ألسنتهم، أو تقتضيه أحكام الضرورة الشعرية أو الصنعة الأدبية.

انظر إلى بيت المتنبى:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

فهو لم يضع «إذا» فى بداية الشطر الأول، و«إن» فى الشطر الثانى إلا لضرورة الوزن، ولو كان الأمر عكس ذلك لانكسر البيت واختل الوزن.

وليس الأمر كذلك فى القرآن الكريم، لأن الله عزوجل يستخدم كل كلمة وكل جملة فى القرآن الكريم فى مكانها، وفى السياق الذى ترد فيه، وفى التركيب المحدد لها.

فى القرآن الكريم يتحد لفظ الكلمة ومعناها، وتركيب الجملة ودلالتها فى نظم قرآنى معجز، تكون كل كلمة فيه مقصودة للفظها ومعناها، لتؤدى دلالتها وإيحاءاتها التى اقتضتها حكمة الله عزوجل.

واستعمال «إن» و«إذا» فى القرآن الكريم يؤكد هذه الحقيقة، ذلك أن «إن» ترد فى القرآن الكريم عندما يكون الأمر محتملاً للشك بعيداً عن اليقين.

وترد «إذا» عندما يكون الأمر مؤكداً لا تشك فى حصوله.

اقرأ الآيات الكريمة الآتية:

قال تعالى: ﴿فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله، عند المشعر الحرام﴾[1].

وقال تعالى: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت، توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله﴾(الجمعة:٩). وأترك القارئ الكريم يتبين مدى اليقين في هذه الآيات[3].

أما «إن» فإنها لمواضع الشك، تأمل قوله تعالى: ﴿إن خفتم ألا تعدلوا فواحدة﴾[4].

وقوله سبحانه: ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[6].

وقوله سبحانه في سورة الشورى: ﴿وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور﴾[7].

تذوق.. كيف أتى في تعليق الرحمة المحققة إصابتها من الله تعالى بـ«إذا»، لأن «إذا» تدخل على المتيقن من الأمور: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾[8]، وأتى في إصابة السيئة بـ«إن» التي لا تدخل في التركيب إلا على أمر مشكوك فيه، فإن ما يعفو الله عنه أكثر.

وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان يئوساً﴾[9].

كيف أتى -هنا- بـ«إذا» المشعرة بتحقيق الوقوع المستلزم لليأس، فإن اليأس إنما حصل عند تحقيق مس الشر له، فكان الإتيان بـ«إذا» ههنا أدل على المعنى المقصود من «إن».

ومثل هذه الأسرار في القرآن الكريم لا يرقى إليها إلا بموهبة من الله، وفهم يؤتيه عبداً في كتابه[10].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٩. (٢) سورة الأنعام: ٦١.
(٣) انظر: شواهد في الإعجاز القرآني، د. عودة، ص٢١٩.
(٤) سورة النساء: ٣. (٥) سورة البقرة: ١١١. (٦) سورة الحجرات: ٦.
(٧) سورة الشوري: ٤٨. (٨) سورة النصر: ١ (٩) سورة الإسراء: ٨٣.
(١٠) انظر: ابن القيم وحسه البلاغي في تفسير القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص٥٦.

وختاما

فقد تبين لنا من تحليل مجموعة من الألفاظ القرآنية اختصاص كل لفظ بدلالة أو أكثر من الدلالات الهامشية التى يمتاز بها من الألفاظ الأخرى التى تشاركه فى المعنى العام.

ولا غرو فى ذلك فهو البيان الأعلى الذى خلف وراءه ألسنة الأعراب فى عصر الفصاحة عاجزة متلجلجة، وتحدى من بعدهم الإنس والجن–وإن تظاهرا– أن يأتوا بآيات من مثله ولو مفتريات، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلا.

ولا ريب أن ما وجدناه من فروق بين ألفاظ تقاربت دلالاتها فى آيات الكتاب المبين– يعد واحداً من أسرار فصاحته وإعجازه، فكان أن امتاز من البيان البشرى بدقة ألفاظ وتوافق معان، ترتد أبصار البلغاء كليلة دون الطموح إليها[1].

إن مرد بلاغة القرآن الكريم ترجع فى جانب كبير منها إلى الدقة المتناهية فى اختيار ألفاظه من حيث مطابقة اللفظ للمعنى، ومدى القدرة الفائقة على تسخير اللفظ لتجلية المعنى، وعرضه فى المظهر المطلوب، والمكان المناسب.

وإن الكلمة القرآنية تمتاز إلى جانب الإيقاع الخاص فى السمع باتساقها الغريب مع المعنى حتى إن القارئ يحس بإطلالة المعنى المطلوب أو كأن فيها إشراقا تتألق فيه صورة المعنى أمام ذهنه وبصره. ولاشك فى صلاح كل كلمات القرآن الكريم للتمثيل على الدقة المتناهية فى أختيار الألفاظ وحسبنا ما قدمنا دليلا واضحا على الدقة فى الدلالة على المعنى وحسن أنتقاء اللفظ، واستعمال ما هو أحق بالمعنى وأولى بالإستعمال فقد يشترك لفظات فى معنى واحد ولكن أحدهما أدق من الآخر فى الدلالة، وأدخل فى المعنى، وأقدر على التعبير عنه من اللفظ الآخر، وقد تغيب هذه الفروق الدقيقة بين

---

(١) انظر:الترادف في القرآن الكريم، محمد نور الدين المنجد، ص٢٢٤.

الألفاظ عن عامة الناس وبعض خاصتها، ولكن أسلوب القرآن الكريم يراعيها بدقة فلا تغيب عنه هذه الفروق.

ويبقى القرآن الكريم محفوظاً بحفظ الله، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قائماً يتحدى الناس جميعاً أن يأتوا بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً، وهذا التحدى لا يكون إلا باللغة، وبالبناء اللغوى المعجز، وبالأداء البيانى العالى الذى هدفه التشريع أولاً، ويفيض منه على مر العصور ظواهر بلاغية وأدبية تبهر الألباب والعقول، وتتشكل فى كل عصر بما يلائم ذلك العصر من أشكال الحياة المتنوعة، ومفردات المعرفة المتجددة، ذلك أن نظم القرآن الكريم واختياره للكلمات فى سياقها وللحركات تنظم التراكيب اللغوية، وللدلالات المعجمية المرتبطة بالسياق الاجتماعى، كل ذلك هو إعجاز القرآن الكريم.

إن إعجاز القرآن الكريم فى الإشعاع وفى الإيحاء وفى الظلال وفى المعانى التى تفيض من آياته فى كل زمن، ومن العجيب أنها دائمة صادقة كل الصدق، كاملة تمام الكمال، ذلك أن كل عصر يأخذ منها بطرف، بل إن كل عصر يتوصل إلى ما يكتب له أن يتوصل إليه وعندما تقوم الساعة يكون الناس جميعاً خاضعين لقول الله عزوجل: **﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلا﴾**[1]، ومؤمنين بقوله سبحانه: **﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدادا﴾**[2].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

---

(١) سورة الكهف: ٨٥.

(٢) سورة الكهف: ١٠٩.. وانظر: شواهد في الإعجاز القرآني، د. أبو عودة، ص٤٩.

المراجع

(١) الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى، ط٣، ١٣٧٠هـ، المكتبة الثقافية، بيروت.

(٢) أساس البلاغة للزمخشرى، مطابع دار الشعب، ١٩٦٠م، مصر.

(٣) أسلوب الالتفات فى البلاغة العربية، د. حسن طبل، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

(٤) الأسلوب فى الإعجاز البلاغى للقرآن الكريم، د. محمد كريم الكواز، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ط١، ١٩٩٧م.

(٥) الإعجاز البلاغى، د. محمد أبو موسى، ط١، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

(٦) الإعجاز البيانى للقرآن ومسائل ابن الأزرق، د. بنت الشاطئ، ط دار المعارف بمصر.

(٧) إعجاز القرآن للباقلانى، تحقيق السيد أحمد صقر، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣م، وط ١٩٥٤م.

(٨) إجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعى، ط٤، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٧٤م.

(٩) إعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق، د. حفنى محمد شرف، مطابع الأهرام، القاهرة.

(١٠) إعجاز القرآن الكريم، د. فضل حسن عباس، وسناء فضل عباس، ط دار الفرقان، ١٩٩١م.

(١١) الإيمان لابن تيمية، ط٢، ١٣٩٢هـ، المكتب الإسلامى للطبع والنشر.

(١٢) البحر المحيط لأبى حيان الأندلسى، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.

(١٣) البرهان فى علوم القرآن للزركشى، ط٢، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، مكتبة دار التراث، القاهرة، ١٩٥٧م.

(١٤) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن للزملكانى، ط١، تحقيق د. خديجة الحديثى، ود. أحمد مطلوب، مطبعة العانى، بغداد، ١٣٩٤هـ، ١٩٧٤م.

(١٥) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز للفيروزآبادى، تحقيق

محمد على النجار، والطحاوى، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٣م.
(١٦) الترادف فى القرآن الكريم بين النظرية والتطبيق، محمد نور الدين المنجد، دار الفكر، دمشق، ط١، ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
(١٧) التعبير الفنى فى القرآن، د. بكرى شيخ أمين، ط٢، دار الشروق.
(١٨) التعبير القرآنى، د. فاضل صالح السامرائى، دار عمار، الأردن، ط١، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.
(١٩) تفسير أبى السعود، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
(٢٠) تفسير البيضاوى (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)، مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع، بيروت.
(٢١) تفسير ابن جرير الطبرى، ط دا المعارف بمصر، وط. دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ.
(٢٢) تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابورى (بهامش تفسير الطبرى)، دار الفكر، بيروت، ١٣٩٨هـ.
(٢٣) تفسير ابن كثير، دار إحياء الكتب العربية، الحلبى، مصر.
(٢٤) تاريخ آداب العرب للرافعى، ط٤، دار الكتاب العربى، بيروت، ١٩٧٤م، وط٢، ١٣٧٣- ١٩٥٣م.
(٢٥) ثلاث رسائل فى إعجاز القرآن للرمانى والخطابى والجرجانى دار المعارف بمصر.
(٢٦) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ١٩٦٧م.
(٢٧) جماليات المفردة القرآنية، د. أحمد ياسوف، دار المكتبى، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٩م.
(٢٨) ديوان جرير شرح محمد بن حبيب، تحقيق د. نعمان محمد أمين طه، دار المعارف بمصر.
(٢٩) ديوان النابغة الذبيانى، جمع وتحقيق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، نشر الشركة التونسية للتوزيع، تونس.
(٣٠) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى، الألوسى، دار إحياء التراث العربى، بيروت.
(٣١) زاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى، ط١، ١٣٨٤هـ، المكتب

الإسلامى للطباعة والنشر.
(٣٢) شواهد فى الإعجاز القرآنى (دراسة لغوية دلالية)، د. عودة أبو عودة، دار عمار، الأردن، ط١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
(٣٣) الصاحبى فى فقه اللغة وسنن العرب فى كلامها، ابن فارس، تحقيق مصطفى الشويمى، ط ١٩٦٤م، مؤسسة بدران للطباعة والنشر، بيروت.
(٣٤) الفروق فى اللغة، أبو هلال العسكرى، ط١، ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
(٣٥) فروق اللغات، نور الدين الجزائرى، تحقيق أسد الله، مطبعة النجف، ١٣٨٠هـ، دار الكتب العلمية بالنجف.
(٣٦) الفروق اللغوية وأثرها فى تفسير القرآن الكريم، د. محمد بن عبد الرحمن بن صالح الشايع، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١، ١٤١٤هـ- ١٩٩٣م.
(٣٧) فقه اللغة وسر العربية للثعالبى، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط٢، الحلبى بمصر، ١٣٧٣هـ، ١٩٥٤م.
(٣٨) فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة المحمدية حتى عصرنا الحاضر، نعيم الحمصى، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
(٣٩) فكرة النظم بين وجوه الإعجاز فى القرآن الكريم، د. فتحى أحمد عامر، القاهرة، ١٣٩٥هـ.
(٤٠) القراءات القرآنية وصلتها باللهجات العربية، د. رشاد سالم، ط١، دار المنار، مصر، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.
(٤١) القاموس المحيط للفيروزآبادى، دار الفكر، لبنان.
(٤٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل للزمخشرى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت.
(٤٣) الكليات لأبى البقاء الحسينى، مطبعة العامرة، ١٢٨٧هـ.
(٤٤) لسان العرب، لابن منظور، تقديم العلايلى، وتصنيف يوسف خياط، دار لسان العرب، بيروت.
(٤٥) لطائف قرآنية، د. صلاح عبد الفتاح الخالدى، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.

(٤٦) لمسات بيانية فى نصوص من التنزيل، د. فاضل صالح السامرائى، دار عمار، الأردن، ط١، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.
(٤٧) مباحث فى إعجاز القرآن، د. أحمد جمال العمرى، ١٩٨٠م، مكتبة الشباب، مصر.
(٤٨) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها للسيوطى، شرح جاد المولى، والبجاوى وآخرين، ط٤، عيسى الحلبى، مصر.
(٣٩) المشاهد فى القرآن الكريم، د. حامد صادق قنيبى، ط١، ١٩٨٤م، مكتبة المنار، الأردن.
(٥٠) المصباح المنير للفيومى، المطبعة الأميرية الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.
(٥١) معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى، تحقيق البجاوى، طبع دار الفكر العربى.
(٥٢) معجم ألفاظ القرآن الكريم (وضع مجمع اللغة العربية)، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب.
(٥٣) معم الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم، ط٢، دار الفكر العربى، ١٩٦٨م.
(٥٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق عبد السلام هارون، ط١، القاهرة، ١٣٦٦هـ، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبى.
(٥٥) مع القرآن الكريم فى إعجازه اللغوى، د. رشاد سالم، مطابع الشهامة، الشارقة، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م.
(٥٦) المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى، مكتبة الأنجلو المصرية، بإشراف خلف الله.
(٥٧) مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) للفخر الرازى، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨١م.
(٥٨) ملاك التأويل لابن الزبير الغرناطى، تحقيق سعيد الفلاح، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
(٥٩) من بلاغة القرآن، د. أحمد بدوى، ط٣، ١٣٧٠هـ، ١٩٥٠م، مكتبة نهضة مصر، القاهرة.
(٦٠) من روائع القرآن، د. محمد سعيد البوطى، ط٢، مكتبة الفارابى، دمشق، ١٩٨٠م.
(٦١) النهاية فى غريب الحديث والأثر لابن الأثير، دار إحياء التراث العربى، بيروت.